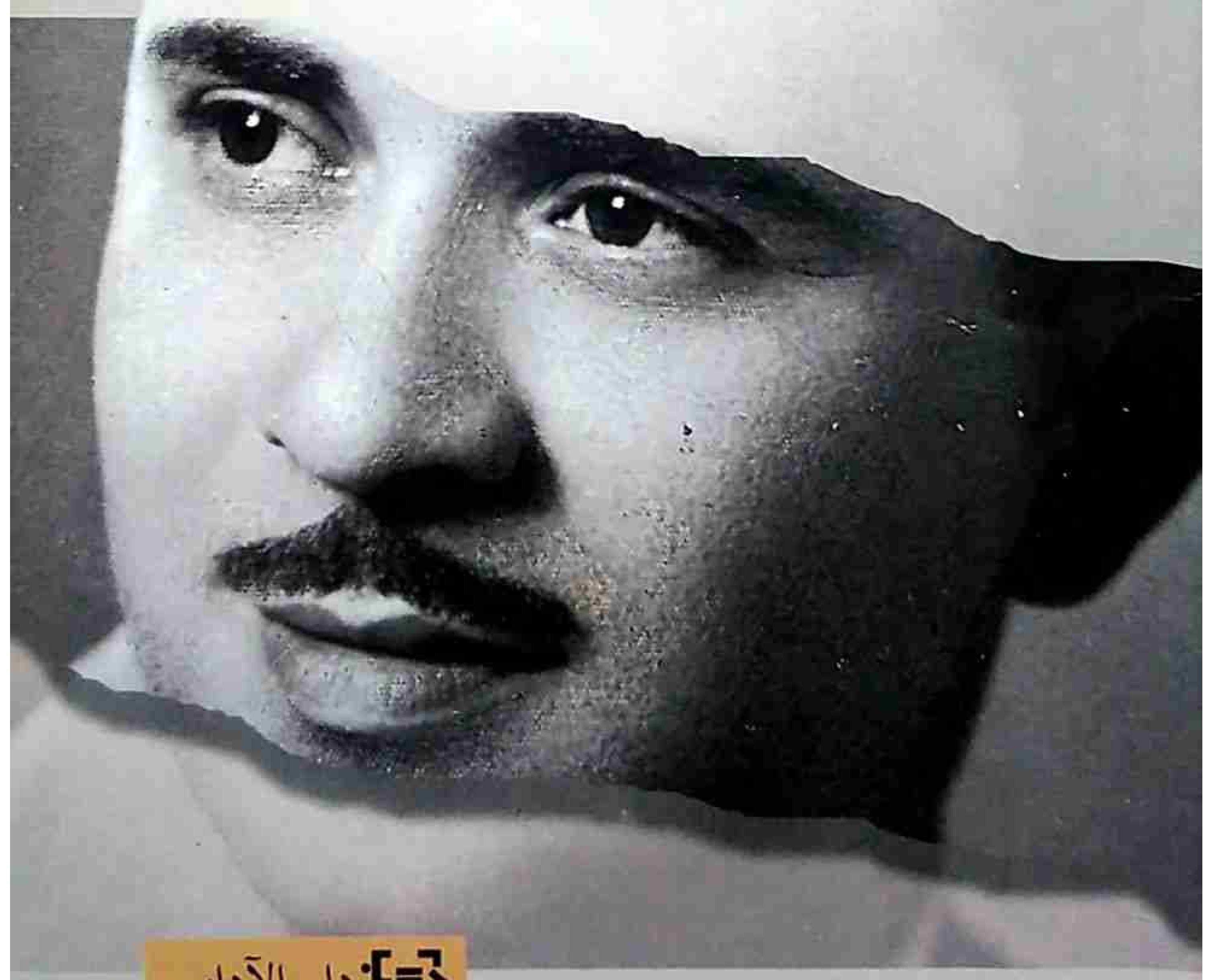
سهيل إدريس

ذكريات الأدب والحب

الجزء الأول



دار الآداب

ذكريات الأدب... والحبّ

سهيل إدريس

ذكريات الأدب... والحبّ

الجزء الأول

دار الآداب - بيروت

ذكريات الأدب... والحبّ

سهيل إدريس/روائيّ لبنانيّ

الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 123 4-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - (03)861632

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

عن الأصل والمَولد والأُسرة

وُلدتُ في بيروت يوم السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٥. ولكنّ تذكرة هويّتي الحاليّة تقول إنّي كنتُ من مواليد ١٩٢٣.

وتفسير هذا الاختلاف بين التاريخين وارد في سجلّات المقيمين لإحصاء ١٩٣٢ بالمديريّة العامّة للأحوال الشخصيّة، وهو عبارة «صُحِّح تولُّدُه من سنة ١٩٢٥ بقرار المحكمة في جلسة ٤/ ١٢/ ١٩٤١.»

لماذا صحّحوا تولُّدي بتكبير عمري سنتين؟

أذكر أنّي أنهيتُ عام ١٩٤١ دراستي في «الكلّيَّة الشرعيَّة في بيروت،» وعزمتُ على السفر إلى القاهرة للالتحاق بكلّيَّة الآداب في الجامعة المصريّة. ولكنّي فوجئت بأنَّ السّفر إلى الخارج، وكانت الحرب العالميَّة الثانية ما تزال قائمة، محظور على من كان عمره دون الثامنة عشرة.

ما العمل إذن؟

قال قريب لي: نقيم دعوى في المحكمة بأنّ خطأً قد وقع في

تأريخ ولادتك، ونطلب تصحيح الخطأ.

قلت: ولكنْ هل تقبل المحكمة؟

أجاب قريبي: إذا تقدَّم شاهدان، فشهدا بوقوع الخطأ.. وسيكون الأمر يسيرًا لأنّ المطلوب هو تكبير العمر. ولو كان المطلوب هو تصغير العمر لكان الأمر أصعب جدًّا.

سألته: وأين الشاهدان؟

قال: أنا أحدهما. ولن يصعب علينا العثور على الآخر!

وهكذا كُبِّر عمري... بشاهديْ زور!

وما كنتُ بحاجة لأن أتساءل عن سرّ حماس قريبي لتأدية هذه «الخدمة» لي، فقد كنتُ على يقين من أنّه يعرف أنّ علاقة حبّ كانت تنسج خيوطها بيني... وبين ابنته.

وعلى أنّي حفظتُ لقريبي «معروفه» وحمدتُه له، فقد اشتدَّ نفوري من الزّور. وعاهدتُ نفسي على مكافحة التزوير في كلّ شأن من شؤون الحياة، حتّى ولو كانت الغاية من التزوير أحيانًا نبيلة!

والحقّ أنّ تكبير عمري لم يَعُد عليَّ بأيّ نفع. فقد عَدَلَتْ إدارة الكلِّيَّة الشرعيَّة عن إيفادي إلى القاهرة لدراسة الآداب، بعد أن نزعتُ الجبَّة والعمَّة.

بل إنّني كنت أجد مشقّة وعُسرًا في إقناع النّاس بأنّي أصغر سنًّا ممّا تَشهد به تذكرةُ هويّتي. وكنتُ أجد من المضحك أن أعمد، كلّما دعت الحاجة، إلى إبراز وثيقة تصحيح العمر.

ومع الوقت، نسيتُ الموضوع أو تناسيته، لاسيّما بعد أن تزوَّجت، ووجدتْ زوجتي أنّ من نقص العقل أن تحاسبني على عامين أكثر أو عامين أقلّ، أيْ إذا كنتُ أكبرُها بتسع سنوات أو بإحدى عشرة سنة.[1]

وما دام الحديث عن تذكرة الهويّة، والشيء بالشيء يُذْكر كما يقول الأسلاف، فإنّها تُثْبت أنّ الجنسيّة: لبنانيّ، وأنّ المذهب: مُسلم سنِّيّ.

ما زلت حتّى اليوم، بالرّغم من جميع النكسات والانشقاقات والفواجع القوميّة، آمل أن يأتي اليوم الذي يحمل فيه أبنائي أو أحفادي أو أحفادُ أحفادي هويّةً لا تحمل إلاّ كلمةً واحدة: عربيّ.

* * *

اسم أبي: شريف إدريس.

ويُقال إنّ أصلنا من المغرب، ككثير من الأسر اللبنانيّة التي هاجرتْ منذ مئات السنين من المغرب واستوطنت البلاد العربيّة. ويُقال كذلك إنّ أجدادي ينتمون إلى الأدارسة الذين أقاموا دولة لهم في المغرب الأقصى في القرن الثامن، وبنوا مدينة فاس، ويَرْجعون بنسبهم البعيد إلى الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

والحقّ أنّي لم أهتمّ يومًا بما يُسمَّى شجرة العائلة، ولم أتساءل

(١) حين قرأتْ زوجتي هذه العبارة، قبل أن أدفع بهذه الصفحات إلى المطبعة، احتجّتْ عليّ قائلة: «هل من الضروريّ أن تكشف على صفحات الجرائد حقيقة عمري؟»

أكنت في أصلي من الشرفاء أم من الدهماء، لأنّي نشأتُ على الإيمان «إنّ الفتى مَنْ قال هٰأنذا / ليس الفتى من قالَ كان أبي.» على ما علّمونا منذ نعومة أظفارنا.

بيد أنّي حين بلغني أنّ للأدارسة وقفًا في مدينة فاس، دفعني الفضولُ، وكنتُ مع زوجتي في زيارة للمغرب عام ١٩٨٤، للتوجّه إلى فاس، علّني يصيبني من هذا الوقف رذاذ. وتبيَّن لي هناك أنّ الوقف في المقام الإدريسيّ ضئيل هزيل، يتنازعه الكثيرون، فآثرتُ أن أهرب... خشية أن أطالَب بما لستُ أعلمه من ضرائب قديمة!

وأتممنا تجوالنا في دروب فاس الضيِّقة التي لا تدخلها السيّارات. وفي طريق العودة، أدركتنا عربةُ نقلٍ يجرُّها بغلٌ في زقاق ضيِّق حُشرتْ فيه زوجتي، فأصيبت بخدوشٍ في جانب عنقها وكتفها، وسمعتها تتمتم، وهي تتوجَّع قائلةً: «... أنت وأجدادك!»

كان أبي، على ما يروي الأقرباء، من أغنياء التجّار في منطقة المرفأ بالعاصمة، حيث كان يدير مع عمِّي تجارة «مال قبَّان.» ولكنّه كان يتجاوز الكرم والأريحيّة إلى الإسراف والتبذير. ويروون أنّه دعا إلى عُرسه الراقصة بديعة مصابني، وأنّه أهدى عروسه عقدًا من اللّؤلؤ باهظَ الثمن. كما أهدى إلى القريبات من فتيات الأسرة، بتلك المناسبة، عقودًا ذهبيَّة. وظلّت الأفراح في البيت قائمة طوال أسبوع، والمائدة مبسوطة بالطعام والحلوى لكلّ مهنّئ من الزوّار. ولعلَّ هذه السعة في الإنفاق كانت على

سبيل التعويض من أنَّه تزوَّج وهو في زهاء الأربعين من عمره بعروسه التي لم تكن تتجاوز الخامسة عشرة.

وأمّي، سهيلة غندور، هي من أسرة تُعَدّ في أسر بيروت البورجوازيّة التي منها عائلات الداعوق وبَيْهم والشيخ وفتح الله وسواها. وقد هاجرتْ من المغرب في موجات متتالية، وتوزَّعتْ بين ثغور المتوسّط وبلدان الجزيرة العربيّة.

أمَّا أمّها، جدَّتي أسماء غندور، فقد تأخَّر زواجُها من جدّي ابن عمّها مصطفى غندور الذي كانوا قد «قطعوا سُرّتها» عليه لدى مولدها. و«قَطْع سُرّة» فلانة على فلان كنايةٌ عن رصدها لتكون زوجته في المستقبل باتفاق الأُسرتين. وقد جعلوا أسماء تنتظر حتّى بلغ مصطفى الثانية والعشرين. ولم تكن هي تصغره إلاّ بأشهر قليلة. وكان من نتيجة هذا الانتظار أن اكتسبتْ أسماء نضجًا وخبرة، فطلبتْ لدى عقد الزواج أن يكون طلاقُها «بيدها»، وربّما كانت من أوائل الفتيات البيروتيّات اللواتي طالبن بهذا. والواقع أنّها لم تلبث طويلاً حتّى استعملتْ هذا الحقّ، إذ اكتشفتْ بعد أشهر من مولد ابنتها، أمّي سهيلة، أنّ زوجها كان على علاقة براقصة يهوديّة تعمل في أحد مراقص حيّ «الزيتونة» في بيروت. وهكذا حصلتْ جدَّتي على الطلاق من جدّي، وبقيتْ أمّي في كنفها. ثمَّ تزوَّجتْ أسماء عمِّي مصباح إدريس الذي سهَّل زواجَ أخيه، أبي شريف، بابنتها سهيلة، بالرّغم من الفارق الكبير في السنّ. أيْ أنّ الأخوين تزوَّجا الأمّ والبنت. وهكذا يكون أخوالي أبناءَ عمّي في الوقت نفسه... وقد كانت

هذه أُحجيّة أتسلّى أحيانًا بطرحها على النّاس: كيف يكون المرء خالاً وابنَ عمّ في وقت واحد؟

ألحقَتْ جدَّتي أمّي بمدرسة «سان جوزيف» التي كانت تدرس فيها قريباتُها، وتُعنى عناية خاصّة بتدريس اللّغة الفرنسيّة. وقد كانت أمّي مجتهدة في دراستها وذات نباهة، وتمكّنتْ من التحدّث بالفرنسيّة في وقت قصير. وكانت مغرمة بالمطالعة. ولكنّ تزويجها، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، حال دون أن تواصل تحصيلها، ولم تلبث طويلاً حتّى أصبحتْ أمًّا.

اشترى أبي للسكن منزلاً كبيرًا ذا طابقين في محلّة «البسطة التحتا» المشْرفة على «الخندق الغميق.» وقد زرتُ مؤخّرًا هذا البيت الذي وُلدت فيه، والذي أصبح منذ حين «مدرسة الزهراء،» وهو يضمّ عشر حجرات جُعلتْ صفوفًا للدرس، بالإضافة إلى «دارين» كبيرتين وفناء واسع جُعل ملعبًا للأولاد. ولا تزال «المشربيّات» قائمة على السلّم الحجريّ الذي يُوصل إلى الطابق الأعلى، كما لا تزال بعض كُوى في أعالي الجدران رُكّب فيها زجاج ملوّن مؤطّر بعروق من البرونز. على أنّ سقف هذه الطبقة العليا كان قد انهار بعد إصابته بقذيفة من قذائف الحرب الأهليّة، فأقيم بدلاً منه سقف خشبيّ يعلوه قرميد أحمر.

في ذلك البيت، وُلدتُ على يدَيْ «داية» تُدعى «أمّ سليم» كانت تولّد نساءَ الأحياء. ولكنّ أمّي كانت تُعارض أن يُختَنَ الطفلُ الذَّكَر عند مولده. «حرام... سيتألّم كثيرًا. ولا أستطيع أن أتحمّل رؤيته وهو يتوجّع،» كانت تقول، وهي تَذْكر ما عاناه

أخي الأكبر. وعبثًا حاولت الأمّهات من قريباتها إقناعها بتعجيل «التطهير،» «لأنَّ الولد حين يكبر، يقولون، يعصى، وغالبًا ما يهرب من المطهِّر». . . حتّى بلغتُ الثالثة من عمري، فخطفتني «عاتكة» التي كان أبي وأمّي قد زوَّجاها بابن أخت أبي على سبيل «الخطيفة،» إذ كان أهلها يعارضون زواجهما، فطهَّرتني مع ابنها «عزّة» الذي كنتُ أكبرُه ببضعة شهور. وحين أعادتني إلى البيت مطهَّرًا، وأنا أبكي، أخذتْ أمّي تبكي معي. فكان على «عاتكة» ذلك اليوم أن تهدّئ بكاء ثلاثة أشخاص.

قالت أمّي، بعد أن مسحتْ دموعها وابتسمتْ: «يي على مُقْلك يا عاتكة!»

أجابت عاتكة: «واحدة بواحدة. . . خطفتموني لتوفيق [زوجها] فخطفتُ سهيل للمطهِّر!»

وأخذتا تضحكان مقهقهتين. ويروون أنّي توقَّفتُ قليلاً عن البكاء لأَنْظر إليهما، غيرَ فاهمٍ من الأمر شيئًا، وأنّهما حين دخلتا إلى المطبخ لإعداد لوازم حفلة التهنئة «بالطهور» عدتُ إلى البكاء.

ترتبط صورة عاتكة بذهني وأذهان أخوتي بطبَّاخة ماهرة كانت تدعو العائلة إلى ألذّ طعام يُطبخ في بيروت. وكنا نتسلَّل إلى بيتها، على غير علم من أبوينا، فتُخرِجُ لنا من «المراطبين» كُتَلاً من مُربّى القَرْع مَحْشُوَّة باللّوز والجوز، نأكلها على مهل ونحن نتلمَّظ بها متلذّذين.

أمّا زوجها «أبو عزّة» الذي كان أبي خاله، فقد كان مشهورًا

بصنع البوظة بالحليب أو باللّيمون أو بالفريز. وكنّا غالبًا ما نتحلَّق حول آلةِ صنعِ البوظة نتفرَّج عليه يُدير فيها بيد حديديَّة أسطوانةً ملأى بالحلِيب المُسَحْلَب يُراكِم حولها قطعَ الثلج، ويَسْمح لنا، كلّ بدوره، أن نحرِّك هذه اليد الحديديَّة حتّى تكلّ يدُنا الرخصة. ولم نكن نحتاج أكثر من ساعة، حتّى يَجْمد الحليبُ ويتحوَّلَ إلى أشهى بوظة يتحلَّب لها الرّيقُ وتُثلج صدورَنا الظمأى.

كان أبو عزّة معلِّمًا كبيرًا في «سوق الخضار» يوصيه أبي على كمِّيَات هائلة من الفاكهة يُرسلها إلى بيتنا بأكياس من الخيش، تُوضع في «غرفة المُونة» التي لم نعرفها يومًا فارغة. وغالبًا ما سمعتُ عبارة: «أبو وجيه. يحبّ بطنه» يتداولها الأقرباء وهم يتغامزون. وكان لأبي كَرشٌ أنفِرُ منها لأنّه لم يكن يتورَّع عن تنفيسها بريح يُطلقها بين الفينة والفينة دون تحرُّج حيثما تنقَّل في المنزل. وسمعتُ أمّي ذات يوم، بعد أن فرغنا من غداءٍ تجشَّأ منه أبي بصوت عالٍ، تقول بتقزّز «أعوذ بالله! ما هذا؟ من فوق ومن تحت؟» فضحك أبي طويلاً، حتّى أضحكنا جميعًا، وعلى رأسنا أمّي.

***

والحقيقة أنّني لم أكن أُحبّ أبي، إذ كنتُ أشعر بأنّه يعيش جوًّا من النفاق. وجاء وقتٌ بدأتُ أحسّ أنّ أبي يحيا حياتين: حياة مع زوجته وعائلته، وحياة ثانية مع آخرين. واكتشفتُ ذات يوم اصطحابه لشابّ جميل الطلعة، أشقر الشعر، كنتُ أراه

أحيانًا في المتجر الملاصق لمتجره على المرفأ. وقد دخل مع هذا الشابّ إلى غرفة الاستقبال، في بيتنا، التي كان لها باب خارجيّ، وسمعتُ بعد قليل صوتَ انغلاق الباب الداخليّ لهذه الغرفة وصوتَ المفتاح يدور في قفل الباب. فناديتُ أخي الأكبر وحكيتُ له، فهزّ رأسه كأنّه فهم ما أقصد إليه، وتمتم بعبارة فيها لهجة استنكار. وتكرّرتْ هذه الحادثة، وازددتُ كرهًا لهذه الازدواجيّة عند أبي.

أعتقد أنّ هذا الحدث قد خلّف عندي نفورًا من العلاقات الشاذّة بالرّغم ممّا ورد من تبريرات لهذه العلاقة تتعلّق بالتأثير الجينيّ والتكوين الجسمانيّ لبني البشر. من أجل هذا كنت دائمًا ما أتجنّب الاختلاء بالرّجال، وأكتشف أحيانًا في بعض العيون ملامح هذا الشذوذ. وينطبق هذا أيضًا على نفوري من العلاقات المِثْلِيّة بين النّساء، وهذا ما صوّرتُ طرفًا منه في روايتي **أصابعنا التي تحترق**.

❋ ❋ ❋

أنا ثاني سبعة رُزقهم أبي وأمّي.

يكبرني «وجيه»، بِكْر العائلة، بزهاء عام ونصف. وقد قطع دراسته في نهاية المرحلة الابتدائيّة، ملتحقًا بمتجر خالي، لنفوره من الدرس أوّلاً، ولحاجة أبي، بعد أن آل إلى الفقر، إلى من يعينه للقيام بأود الأسرة ثانيًا. وأمّا أخي منير، الذي يليني، فإنّ عوز العائلة نفسه هو ما اضطره اضطرارًا إلى وقف دراسته، بالرّغم من اجتهاده وحسن تحصيله، فالتحق بعمل في مقهى «الأوتوماتيك» الذي كان يملكه الخال نفسه. وأمّا أخي الأصغر،

أنس، فقد وُلد بعد ثلاث بنات، وبذلتْ أمّي كلّ جهدها لإجهاضه فأخفقتْ.

كانت وجيهة، كبرى البنات الثلاث، موضع اهتمامي لما كانت تتمتّع به من ذكاء وطموح إلى بلوغ مرتبة عليا من التحصيل. وحين أنهت دراستها الثانويّة في كلّيّة المقاصد الإسلاميّة للبنات عام ١٩٣٥ على ما أذكر، ووافقتْ جمعيّةُ المقاصد على إيفادها في بعثة للتخصّص في التربية بالقاهرة، وقفتُ في وجه معارضة أبي لسفرها، وشجّعتُها على نزع الحجاب، وظللتُ أدعم جهدها الدراسيّ، حتّى نالت دبلوم التربية وعلم نفس رياض الأطفال من جامعة إبراهيم باشا بالقاهرة. وحين عادت إلى بيروت، تولّت تدريس مادّة التربية في بيت الأطفال التابع لجمعيّة المقاصد الإسلاميّة، وتزوّجت المحامي شفيق الوزّان، الذي أصبح، في الثمانينيّات، رئيسًا للوزارة في لبنان.

وأمّا أختاي الأُخريان، عائشة ويُسْر، فقد تزوّجتا بتاجرين من تجّار بيروت، وأصيبت يُسْر، وهي في شرخ الشباب، بنزيف في رأسها قضت منه نحبها، فخلّفتْ في قلوب أفراد الأسرة نزيفًا من الحزن لا يُرقأ.

* * *

كان أقرباء أبي من آل مبسوط وفايد والحلواني وكوش والسردوك ينزلون منازل متجاورة حول بيتنا الكبير، يتزاورون ويتضايفون ويتوادّون، ويعيشون في شبه قبيلة.

وكان أبي، بشهادة الأقرباء، مُسرفًا مبذِّرًا، أغراه على ذلك غناه في التجارة، وامتناعُ أمّي عن معارضته، تجاوبًا مع وضعها الاجتماعيّ الميسور. وكان كثيرًا ما يُولم للأقرباء، بمناسبة وبغير مناسبة. ويبدو أن أحد التجّار من زبائنه قد استغلَّ نزعة الكرم لديه، فأقنعه بأن يَكْفله لدى تجّار آخرين بمبلغ كبير من المال. وكان في ذلك خدعة ذهب ضحيّتها أبي الطيِّبُ القلب، إذ أُعلن إفلاسُ ذلك التاجر بعد يومين. فأصيب أبي وعمّي، من جرَّاء دفع الكفالة، بضربة قاسية في مالهما الذي أَجهزتْ عليه صفقةُ فول استورداه في سفينة تجاريَّة من مصر، إذ وصل الفول مسوّسًا إلى المرفأ، فأُلقي في البحر. وآل أبي وعمّي، كالتاجر الذي كفلاه، إلى الإفلاس!

وأحسَّت العائلة بأنَّ وضعها الاقتصادي قد تغيَّر بعد أن باع أبي منزل البسطة التحتا ونَقَلنا إلى طابق أرضيّ استأجره في محلّة برج أبي حيدر.

وفي ذلك المنزل، أيقظتنا ذاتَ صباح، طرقاتٌ عنيفة على الباب. وما كاد أبي يرى الطارق حتّى سارع إلى إغلاقه، فإذا بالرّجل ينفجر بالشتائم والسباب، وينعت أبي بأقبح النعوت، مطالبًا إيّاه بردّ ماله. فأدركْنا أنّ أبي كان مدينًا له، ولكنّه عاجز عن الوفاء بدَيْنه. وكنّا ننظر إلى أبي ممتقع الوجه، يَرْشح جبينه عرقًا، ولا ينبس بكلمة.

ولعلَّ هذا المشهد، الذي لم أَنْسَه يومًا، كان السبب في نفوري الشديد من الدَّين... والدائنين والمدينين، وحرصي طوال حياتي على ألاَّ أكون مدينًا لأحد.

والحقّ أنّي كنتُ، على ما أذكر، أشعر بشيء من الذلّ حين كنت أقف مع أخويَّ كلّ صباح، ونحن في طريقنا إلى المدرسة، أمام باب تاجر صغير للحبوب، ليُعطينا خمسة قروش، هي «خرجيّتنا» اليوميّة، سدادًا لِدَيْنٍ لأبي لدى ذلك التاجر، منذ وقت طويل. كان ذلك أشبه بالاستعطاء و«الشحاذة.» وكنت أرفض أن أقوم بهذا العمل حين كان أخي يُحيله عليّ، بين يوم وآخر، فأذكِّره دائمًا بأنّه هو الأخ الأكبر، وأنّ أبانا قد عهد إليه وحده بهذه المهمّة!

وازداد إحساسي بالمذلّة حين فهمتُ أنّ أقساطنا المدرسيّة، نحن الثلاثة، كان يدفعها لصندوق كلّيّة المقاصد الإسلاميَّة، التي أُلحقنا بها في المرحلة الابتدائيَّة، زوجُ خالة أمّي الوجيه الثريّ أنيس الشيخ. ثمّ تحوّل ذلك الشعور إلى ما يشبه الحقد على ذلك الثريّ، لأنّه لم يكن يُرسل إلى منزلنا سائقَه، فيحملنا مع أولاده كلّ صباح بسيّارته الفارهة السوداء «الناش» إلى المدرسة. وقد قال لي أبي، حين طالعتُه بذلك الاحتجاج: «اسكتْ! شحّاذ ومُشارط!» ويبدو أنّي لم أفهم آنذاك قصده. ومع ذلك، فقد سألته بلهجة لا تخلو من تعجُّب:

- ولماذا أصبحنا شحّاذين؟

صاح أبي بلهجة غاضبة:

- إِستغفر الله! إيَّاك والكفر، يا ولد!

ولم أُجب بشيء، بل أخذني بعض الخوف من أن أكون حقًّا قد كفرت.

* * *

قضينا بضع سنوات في برج أبي حيدر، ثمّ انتقل بنا أبي إلى منزل آخر في البسطة التحتا ليكون قريبًا من المسجد الذي عُيِّن فيه ليؤمّ المصلِّين فجر كلّ يوم.

وكان أبي يرتدي ثيابًا تجمع بين الدينيّ والمدنيّ: فهي تتألَّف من بنطال كالبناطيل المدنيّة، وإنْ كان أوسع، وسترةٍ كجبب المشايخ، وإنْ كانت أقصر. وكانت عمامته تختلف عن عمامة الشيخ الأسطوانيَّة البيضاء بأنّها رقيقة سمراء، تسمَّى «شرخانة»، تُلَفُّ على طربوش أحمر، وهي مطرَّزة بخطوط مذهَّبة.

لم يكن أبي رجل دين، بل رجل تديُّن، أخذ من بعض علوم الدين بأطراف. وكان يحفظ القرآن ويروي الحديث، ويدعو أصدقاء له وأقارب إلى لقاءات دينيَّة وحفلات ذِكْر يَحْضرها أحيانًا بعضُ «المولويّة» الدوَّارين. وكنتُ أتسلَّل إلى غرفة الاستقبال فأجلس على مقربة منه أستمع إلى المدعوّين يقرأون سورة الكهف أو سورة يس، فيشجِّعني مربِّتًا على كتفي، ويصحبني لتأدية صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبتها. ولكنّي كنتُ أحبّ، أكثرَ ما أحبّ، مثابرتَه على صلاة الفجر في جامع «البسطة التحتا». وقد طلبتُ منه يومًا أن يوقظني فجر اليوم التالي لأصحبه إلى الجامع، فسرَّه ذلك، ورافقتُه سعيدًا بعد أن توضَّأت، وصلَّيتُ مع المصلِّين الذين أمَّهم، ثمّ عُدتُ معه إلى البيت، مسحورًا بذلك الجوّ الدينيّ وبصوت أبي الحنون وهو يتلو آيات من القرآن في ركعتَي صلاة الفجر.

وقد فوجئ أبي يومًا حين استمع إليَّ أتلو القرآن، فقال لي مبتهجًا:

- لم أكن أعرف أنّ صوتك جميل!

قالت له أمّي بلهجة افتخار:

- إنّك لم تسمعه وهو يغنّي لعبد الوهاب أو أمّ كلثوم!

كانت أمّي تعشق صوت أمّ كلثوم، وتحرص على الاستماع إلى حفلتها الشهريّة من إذاعة القاهرة. وأذكر أنّنا كنّا نقصد، سيرًا على الأقدام من منزلنا في برج أبي حيدر، بيت أبو عزّة في البسطة التحتا، لنسهر على صوت أمّ كلثوم عبر جهاز الراديو الذي كان قريبُنا من أوائل الذين اقتنوه في بيروت. كان الخميسُ الأوّلُ من كلّ شهر يومًا عزيزًا علينا، ننتظر حلوله بفارغ الصبر لنحيي ليلته مع أمّ كلثوم، غناءً ساحرًا يهزّ أجسامنا ونفوسنا، نتمايل منه طربًا ونشوة، ونتابع آهات المستمعين المصريين وصياحهم وتصفيقهم، وتردِّد أمّي: «آه يا ثومة! آه يا ثومة!» ويردِّد أبي: «سبحان من وهبك هذه الحنجرة!»

ذات ليلة من ليالي الربيع سهرنا، على سطح منزل أبو عزّة في ضوء القمر، نستمع إلى أمّ كلثوم تصدح بأغنيتها التي حفظتُها: «رَقّ الحبيب وواعدني يوم...» كنّا نجلس فوق «طراريح» بُسطتْ على السطح. وقد ألجأنا ضِيقُ المكان وكثرةُ الساهرين إلى ما يشبه التلاصق في المجلس، فألفيتُني إلى جوار فتاة من قريباتي أحسستُ بذراعها العارية تلامس ذراعي فتبعث في جسمي رعشة لذّة. وحين زدتُ التصاقًا بها لم تبتعد ولم

تراجع، بل حَسِبْتُنِي ألمح على شفتيها طيف ابتسامة. وتنبَّهتُ فجأةً إلى أنّ نهدها بدأ يبزغ على صدرها، فعجبتُ لذلك إذ كنتُ أعْلم أنّها في مثل سنّي وأنا لم أبلغ العاشرة بعد!

قضيت تلك السهرة مع أهلي أستمع إلى «آهات» أمّ كلثوم، ترافقها أنفاسي المتقطِّعة ورعشاتٌ خفيفةٌ في جسمي ورجفةٌ في يدي التي تتحرَّق إلى ضمّ ذلك النهد الطفل على صدر «أميَّة...»، ولكنْ يَحُول دون سعيها إليه ضوءُ قمرٍ ساطع ظننتُ، حين حدَّقتُ فيه، أنّه يبتسم ساخرًا منّي.

حين عُدت مع أهلي إلى المنزل قرابة الفجر، كنتُ أتساءل في ضِيق: أليس بعيدًا، أطولَ ممّا ينبغي، الخميسُ الأوَّلُ من الشهر القادم؟

وبعد أرق طويل، عانيتُ فيه من جسمي، نمتُ من إرهاق وأنا أحسُّ بأنّي أزداد شغفًا... بصوت أمّ كلثوم!

***

ليلةَ الخميس الأوّل من الشهر التالي، قصدنا منزل أبو عزّة لإحياء السهرة مع «مطربة الشرق.» كان الجوّ حارًّا، وكان الزوّار قد صعدوا جميعًا إلى السَّطح فاحتلّوا ساحته وأركانه، مقتعدين الطراريح، وأبو عزّة جالس في الوسط وحوله الأولاد يتفرَّجون عليه وهو يدير آلة البوظة.

وأخذتني الحيرة أين أجلس، فالحضور كثيرون متلاصقون، ولم تترك لي أميّة مكانًا بجوارها.

وقد رميتُها بنظرة عتاب، فردَّت عليّ ببسمة!

وتدبَّر أخوتي أمرهم في الجلوس، وبقيتُ أدير عَينيّ أبحث عن مكان، حتّى رأيتها تنهض متّجهةً إلى السُّلَّم. وقبل أن تهبط الدرج، التفتتْ إليَّ وغمزتني بعينها. يا إلّهي! كيف أوتيتْ تلك الجرأة!

أحسستُ بقوّة تدفعني من ظهري وتحرِّك قدمَيّ باتّجاه السُّلَّم.

وحين بلغتُ أسفل الدرج، توجَّهتُ إلى «الدّار»، فوجدتها واقفةً في زاوية، عند باب مفتوح، كأنَّها كانت تنتظرني. وقد مشيتُ إليها، يأخذني الخوف من أن يكون ثمَّة أحد. ولكنّي حين سمعتها تقول «كلُّهم فوق،» اقتربتُ منها فأمسكتُ بيدها، فإذا هي تدني وجهها من وجهي، وتجرّني إلى داخل الغرفة.

ضممتُها، فأحسستُ بنهدها على صدري.

وحين انسلَّت يدي إليه وهصرته، سمعتها تتمتم بصوت واهن، من غير أن تتراجع: «عيب!»

لم أجب بكلمة، وظلَّت يدي تشدّ عليه حتّى قالت: «إنّك توجعني!» ونظرتُ إليها، فإذا عيناها شبه مغمضتين ووجهها ممتقع.

كنتُ أهمّ بالانحناء لأقبِّل نهدها، وهو في يدي كالعصفور، حين سمعنا وقعَ قدمٍ تهبط الدرج.

تركتها مرتجفًا، واتّجهتُ مسرعًا نحو السلّم دون أن ألتفت إليها، فالتقيت على الدرج «عاتكة» هابطةً إلى «الدّار» فقالت لي: «أَسرِعْ لتأخذ حصَّتك من البوظة قبل أن تنتهي!»

وظللتُ أرتعش، حتّى رأيت أميّة تصعد إلى السطح، وكان وجهها شديد الاحمرار. ولم أتنفَّس الصعداء إلاّ حين رأيتها تبتسم لي.

تلك اللّيلة، لم أجد لذّة في أكل البوظة، ولم أطرب لصوت أمّ كلثوم.

كان ذلك، على ما أَذْكر الآن، أوَّلَ لقاءٍ لي بالجنس الآخر.

جبل النّار . . . والشّيخ الصغير

الحقبة التي عشتُها حتّى تقديم الشهادة الابتدائيّة «السرتيفيكا»، أيْ حتّى بلوغي الحادية عشرة، هي حقبة غائمة غامضة تحمل صورة باهتة من بضعة أشهر قضيتُها أنا وأخي الأكبر في كُتّاب كان يديره «الشيخ محمود» مؤذِّنُ جامع برج أبي حيدر. ولعلّ والديْنا أرادا أن يتخلَّصا من العفرتة والصّخب، فأرسلانا إلى ذلك الكُتّاب على سبيل «الزرابة» التي ستكون، مع ذلك، فرصةً لتعلّم أحرف القراءة والإملاء، وحفظِ آيات من القرآن.

والذكرى الباقية من تلك الأَشهر القليلة في كُتّاب الشيخ محمود، هي ذكرى دخول أبي ذات صباح، متجهّمَ الوجه، إلى غرفة المدرِّس، ونُطقِهِ بعبارة واحدة قبل أن ينصرف:

- يا شيخ محمود! الحصيرة تحتاج إلى تنفيض!

وما كاد أبي يخرج، حتّى غَمَزَ الشّيخ محمود صَبيَّيْن اقتادا أخي من ذراعيه وأجلساه على كرسيّ منخفض. ثمّ برز صبيٌّ ثالث يحمل آلةً نراها للمرَّة الأولى، هي خشبةٌ رُبط طرفاها

بحبل. وبطرفة عَيْن، نَزَعَ الصبيُّ حذاءَ أخي ثمّ أَدْخل قدميه في هذه الآلة. وتقدّم صبيٌّ رابع فأمسك معه، من الطرف الآخر، بالخشبة التي حَصَرَت الآن بحبلها قدميْ أخي الذي بدأ يصرخ، وهو يتخبّط بين أيدي الصبيان.

وتقدَّم الشيخ محمود وبيده قضيب متين أخذ يضرب به القدمين المشدودتين المرفوعتين. وحين اشتدّ بكاء أخي، أمر الشيخ باقي الصِّبْية أن يرفعوا أصواتهم بنشيد المدرسة ليغطّوا به صوتَ أخي الصّارخ.

أخذتُ أنا أيضًا أبكي، ثمّ تمكّنتُ من الهرب دون أن يستطيع الصِّبْية اللّحاق بي. وظللتُ أعدو حتّى بلغتُ البيت، فدخلتُ غرفتنا من غير أن أسلّم على أمّي. وانتظرتُ حتّى عاد أخي ظهرًا، فعانقته وأخذنا نبكي معًا.

وحين عاد أبونا في المساء، لم يسألنا عن شيء، ولم نقل له شيئًا، ولكنّنا لم نشكّ في أنّه قرأ في عيوننا تعبيرَ كراهيةٍ له لم نستطع أن نُخفيه.

قال لي أخي وهو يَدْلك قدميه متوجّعًا: لقد نجوتَ أنت يا ملعون من «الفَلَق!»

قلت: تنفيض الحصيرة يعني، إذن، الفَلَق؟

لم أسمع جواب أخي، لكنّي أخذت فجأةً أتساءل: أيكون هذا «الفَلَق» هو الذي وَرَدَ في السورة التي حفظناها، قبل أسبوعين، في كُتّاب الشّيخ محمود، والتي مطلعُها ﴿قُلْ أَعُوذُ بربّ الفَلَق، من شرّ ما خَلَق﴾؟

كانت تلك الواقعة آخرَ عَهْدنا بكُتّاب الشيخ محمود. فقد اتّفقتُ مع أخي على ألاّ نذهب صباح اليوم التالي إلى الكُتّاب، وتعاهدنا على رفض العودة إليه، مهما كلّف الأمر. وكان ذلك، على ما أذكر، أوّل تمرُّدٍ خطير ضدّ الإرادة الأبويّة.

بيد أنّ أبانا ما لبث أن ألحقنا بكتّاب آخر من الكتاتيب التي تُعلّم القرآنَ الكريم، كان يديره شيخ آخر في حيّ «المصيطبة» هو الشيخ عبد الستّار دوغان الذي أصبح ابنُه محمّد أمين رفيقي على مقعد الدرس، ثمّ صديقي وزميلي في صحيفتيْ **بيروت** و**بيروت المساء** قبل أن يؤسّس جريدة **الشعب**.

وأحسب أنّي لم أكن أتجاوز السادسة من عمري حين التحقتُ مع أخي بكلّيّة المقاصد في منطقة «الحرج،» بفضل مساعدة الوجيه المحسن أنيس الشيخ، زوجِ خالةِ أمّي، الذي دَفع أقساطَنا في الكلّيّة طوال الدراسة الابتدائيّة. وقد ظللتُ في المقاصد خمسة أعوام انتهت بفوزي بشهادة الدراسة الابتدائيّة.

وبالرّغم من فوزي بهذه الشهادة، فقد كنت «ضعيفًا» جدًّا في مادّة الحساب. كنتُ أحصل على «امتيازات» كثيرة في مادّة «العربي»، وكان «دفتر العلامات» الشهريّ يحمل غالبًا تقديرات «جيّد» و«جيّد جدًّا» وحتّى «ممتاز» إزاء مواد «القرآن» و«الإنشاء» وربّما «التاريخ» و«الفرنسيّ.» أمّا التقدير إزاء مادّة «الحساب» فلم يكن في أحسن الأحوال إلاّ «دون الوسط»، وهو في بعض الأحوال «ضعيف»، وفي معظم الأحوال «ضعيف جدًّا.» وترجمة هذه التقديرات بالأرقام كانت تتراوح بين ٧ علامات

على عشرين و٣ علامات.

هذا الضعف الذي كان يثير سخريةَ رفاقي في «الصفّ» هو الذي جعل معلّم الحساب يتركني وشأني، كأنّه يئس من إمكان تحسُّني في هذه المادّة.

وتمثيلاً على ضعفي في الحساب، أروي في مجالسي الخاصّة، وربّما في إحدى محاضراتي، أنّ معلّمي هذا، اليائس منّي، خطر له ذات يوم أن يلغي تلك «المعاهدة الصامتة» التي عقدها معي. فاستدعاني في صفّ الحساب إلى اللّوح الأسود، وقال لي:

- أَعْرف أنّكَ ضعيف، بل عدمان في الحساب. ولذلك فسأعطيك عمليّة بسيطة جدًّا...

ورأيتُه يلتفت إلى جانب في القاعة صَدر منه بعضُ ضحكات مكبوتة تبادلها طالبان أو ثلاثة. فأراد أن يعبس ليردعهم، ولكنّ عبسته تحوّلتْ إلى شبه بسمة متواطئة ساخرة. ثمّ عاد يقول لي وأنا أمام اللّوح الأسود:

- أُكْتُبْ يا شاطر!

لم ألتفت إليه حتّى لا أرى البسمة الهازئة على قَسَماته، بل انتظرتُه حتّى أضاف:

- قاعتان للدرس مثل هذه القاعة، أُكْتُبْ «٢»، في كلّ واحدة منهما اثنا عشر مقعدًا، أُكْتُبْ «١٢»، على كلّ مقعد طالبان، أُكْتُبْ «٢»، كان غائبًا من الطلاّب يومذاك خمسة، أُكْتُبْ «٥»، فكم يكون عدد الطلاّب الحاضرين في القاعتين؟

كتبت كلّ هذه الأرقام بيدٍ ترتجف، ثمّ فوجئتُ بها كلّها تدور في عينَيَّ وفي رأسي، فأخذتُ أَجْمع وأَضْرب وأَقْسم وأَطْرح، ثمّ أَطْرح وأَقْسم وأَضْرب وأَجْمع، وطلع معي في آخر العمليّة ما يساوي: ٢٥٣٤٧. فكتبتُ الرّقم بسرعة وأنا أحمد الله أنّه لم يكن فيه «كسور»!

وفيما ظللتُ واقفًا تجاه اللّوح الأسود، أَسْمع قهقهات رفاقي ورائي، من غير أن ألتفت إليهم، أحسستُ بإصبعين قويَّتيْن تفركان أُذنِي فركًا شديدًا. فأطلقتُ صرخةَ توجُّعٍ ضاع صوتُها في قهقهات الرّفاق. ثمّ قال أستاذ الحساب:

- رُحْ! الله يسوّد وجهك مثل هذا اللّوح! كنتُ أظنّ أنّك طالب عَدْمان لا حمار خَرمان!

أظنّ أنّي بعد أن عُدتُ إلى مقعدي والدموعُ في عينَيّ، تذكّرتُ بطاقات «الامتيازات» المذهّبة التي كنتُ قد حصلت عليها في المواد الأخرى، ولا سيّما «اللّغة العربيّة.» فأخرجتُها من محفظتي الصغيرة، وأخذتُ أعدّها نكايةً بمعلّم الحساب وبالرّفاق.

وأذكر أنّي حين التحقتُ بكلِّيَّة المقاصد للتدريس، بعد عودتي من باريس، تسديدًا لبعض الدَّيْن عليّ للمقاصد، التقيتُ معلّم الحساب فسألني:

- كيف حالك، إدريس؟

فأجبته:

- الحمد لله.

وأضفتُ بسرعة:

ـ الآن أصبحنا زميلين يا أستاذ!

فتوقّفَ لحظةً كأنّه يتذكّر، وقال معلِّقًا:

ـ أنت يا ملعون لم تنس ما قلته لك منذ عشرين سنة!

***

أمّا رفاقي في الحيّ، فهم الذين كانوا يعيشون في شارع «فتح الله» في منطقة البسطة التحتا. وكنّا نلعب في «الكلّة»[١] و«الحطّة نطّة»[٢] و«اللّهجة»[٣]، ونطيِّر طيّاراتِ الورق الملوّنة، ونتسابق حتّى الشارع الرئيسيّ الذي كان يتّصل نزولاً بشارع الخندق الغميق، ويمتدّ صعودًا حتّى الحرج الذي كانت تقوم فيه كلِّيَّةُ المقاصد الخيريّة الإسلاميّة.

وكنّا إذا استولى علينا الملل من تلك الألعاب الصغيرة، نتشاور لحظات، ثمّ نَعْمد إلى اللّعبة الكبرى: الترام. نسرع إليه، ننتظر إحدى حافلاته التي تتوقّف عند محطّة البسطة التحتا، فنتعلّق على أبوابها، واثقين بأنّ قاطع التذاكر لن يَمْلك الوقت لمطاردتنا؛ فرحلتنا لن تدوم أكثر من محطّة واحدة، لأنّنا سنهبط من الحافلة حين تقف عند محطّة البسطة الفوقا ونتوجّه إلى قهوة القزاز حيث يُسْمَحُ لنا بالتفرُّج على «الخُرْسان» وهم يتكلّمون.

---

(١) الكلّة: كتلة كرويّة صغيرة من البلّور، يلعب بها الأولاد.

(٢) الحطّة نطّة: وهي لعبة التنافس في القفز فوق الظهور.

(٣) اللّهجة: وهي لعبة يلجأ ممارسوها إلى التضليل في التعرّف على أيٍّ من الكفّين يستعملها اللاّعب في ضرب منافسه.

كانت قهوة القزاز تلك مشهورةً بأنّها ملتقى البُكْم، يَفِدون إليها من مختلف الأحياء البيروتيّة، فيتبادلون فيها أحاديثهم الخاصّة بلغة الأيدي تتحرّك بحركات معيَّنة هي قاموسُهم الاصطلاحيّ الذي يُدخلون فيه ألوانًا من هزّات الرؤوس وتمتماتِ الشِّفاه. وقد أَخَذَنا الذهولُ والدّهشة، بادئَ الأمر، كيف يتفاهمون ويتضاحكون ويعالجون مختلف الأمور بلا كلام، ويختلفون أحيانًا ويختصمون. وحين نغادر المقهى، وننعطف إلى شارع فتح الله، نأخذ في تقليدهم ساخرين، ثمّ نكفّ إذ نتذكّر رَدْعَ أهلنا إيّانا وتحذيرَنا من أنّ الله سيُفقدنا النُّطقَ ويجعلنا مثلهم بُكمًا إذا ظللنا نقلِّدهم مستهزئين.

أمّا فُرجتنا الأخرى في الحيّ فكانت «حمّام البسطة» الذي كان يقوم قبالةَ الجامع، وهو مُغتَسَلٌ عموميّ يقصده السكّان للتحمُّم، ونتغامز نحن، صِبْيَةَ الحيّ، للتسلّل إليه مُتلصِّصين، ننظر إلى المحمِّمين «يكيّسون» الرّجالَ العُراة إلاّ من رقعة تستر العورة، ويَدْلكون أجسامهم السمينة غالبًا، ويصبّون عليهم المياه الساخنة، ويطرقعون بقباقيبهم بين الممرّات. غير أنّهم كانوا يطردوننا إذا حاولنا أن نتسلّل للتفرُّج يوم الجمعة الذي كان مخصّصًا للنّساء!

وأَذْكر أنّ اللافتة التي كانت معلّقة على باب حمّام البسطة كان مكتوبًا عليها أيضًا باللّغة الفرنسيّة **BAIN BASTA**. وقد سمعنا مرّةً أبي يقول لأمّي إنّه يريد أن يقصدهُ فقال لها:

- Je fais au pain pasta.

فقالت له أمّي ساخرة:

- لماذا ترقّق الكلمات؟ هذا لن يقلّلَ من خشونتك! يجب أن تقول !Je vais au Bain Basta.

ثمّ قالت له: Tu parles comme une vache espagnole![1]

فانفجرنا ضاحكين، وشاركنا أبونا الضَّحِك.

كانت «الرحلة» التي نقوم بها بين محطّتيْ قهوة القزاز وحمّام البسطة تتوّج ألعابنا اليوميَّة في الحيّ، إذ كنّا نتفرَّق عائدين إلى البيوت، حيث كانت أمّهاتُنا تنتظرنا لتخضعنا لعمليّة التنظيف والتغسيل قبل الجلوس إلى مائدة العشاء.

وكانت أمّي كثيرًا ما تكلّف أخي الأكبر بأن يطبّق عليّ هذه العمليّة، فينتهزها فرصةً ليشدّد قبضته على رقبتي حين يفركها بالماء والصابون. فإذا تذمّرتُ شاكيًا، عمد إلى قَرْصي أو ضربي ليُثْبت بذلك سلطةَ الأخ الأكبر.

* * *

ولكنّ لحيّ البسطة التحتا وجهًا آخر كان يتكشّف لنا، نحن صبيانَه، مع الأيّام التي كانت تمضي بنا نحو الوعي والنضج. ففيه شاهدنا الجنود السنغاليين التابعين للانتداب الفرنسيّ يقفون عند مفارق الطرق، حاملين بنادقَهم المزوَّدة بالحِراب. وكانت سحناتهم الزنجيّة السوداء تثير فينا حسّ العداوة، حتّى من غير أن

---

(١) أيْ إنك تتكلّم كبقرة إسبانيّة!

نَعْرف أنّهم أعداؤنا، باعتبارهم جنودَ الانتداب الفرنسيّ الذي كان أهلنا ومواطنونا يسعون لإزاحته من لبنان[١].

غير أنَّ وجه البسطة التحتا كان قد تسلَّل إلى وعينا وجهًا نضاليًا في تاريخ لبنان، ممّا كنّا نسمعه من أحداث الحيّ ووقائعه وتاريخه منذ الاحتلال العثمانيّ. وقد قدَّمت «البسطة» شهداءَ للبنان في عداد الشهداء الذين أعدمتهم السلطةُ العثمانيَّة، كان منهم الأخوان المحمصاني وعمر حمد.

ولا شكَّ في أنَّ هذه «الشهادة» قد طبعت البسطة التحتا بطابعها، حتّى أصبحتْ تُعرف بـ «جبل النّار»، إذ كانت تُشارِكُ في كلّ حركة وطنيّة أو قوميّة. وربّما كانت هي التي تُطلق الشرارة إلى سائر الأحياء البيروتيّة، ومنها تنطلق الإضراباتُ أو التظاهرات التي كان الساسةُ يستعينون لتحريكها بفئة «القبضايات.»

و«القبضاي،» وهي كلمة تركيّة ترادف كلمة «الفتوّة» في اللّهجة المصريّة، شخصيّة طريفة لعبتْ دورًا هامًّا في حياة الأحياء الاجتماعيّة. وكان المفروض أن يتمتّع بحدّ أدنى من الشجاعة والإقدام والفروسيّة، فيدافع عن كرامة سكّان الحيّ، ويُجير المستجيرَ به، ويعين المحتاج. وكان النّاس يهابونه، إذ كان لا يَسْمح بأن «يدوس أحدٌ على طَرَفه»؛ فإنْ تجرّأ عليه دخيل أو غريب فلا بدّ له من أن يثأر لكرامته كيْ لا يفقد هيبته. ولكنّ

---

(١) وكان المستعمرون الفرنسيّون يستعملونهم لتجنيب الجنود الفرنسيّين مجابهة المتظاهرين.

أهمّ عمل للقبضاي كان يتلخّص بأنّه «زلمة»[1] الزعيم السياسيّ للحيّ، ينفِّذ رغباته ويؤمّن له مصالحه التي كانت تستقطب كسب الأصوات في الانتخابات النيابيّة!

وكان لجميع الأسر البيروتيّة الكبيرة «قبضاياتها» في الأحياء، أمثال عائلات سلام وقليلات وبيضون وشاتيلا وسنّو والعيتاني وشبقلو ودريان والفيّومي والعانوتي وشهاب الدين والعريس ومنيمنة وعيدو وجنّون وسواها.

ومن القبضايات الذين طارت لهم شهرة أحمد الجاك الذي كان يملك مقهى كبيرًا في قلب ساحة البرج، وكان معروفًا بالأريحيّة والكرم وإغاثة المحتاجين، وكان الزّعيم الوطني رياض الصلح يحبُّه ويستعين به ويقرّبه في مجلسه. وكنّا نحن صبية الحيّ نتنادى لنتفرَّج عليه كلّما مرّ في «البسطة» ممتطيًا صهوة جواده، لابسًا طربوشه الأحمر و«خُنبازه» الأنيق وهو يهزّ بين الفينة والفينة خيزرانته، هامزًا بها حصانه. ومن المعروف أنّه كان من عشّاق أمّ كلثوم، يسافر بين الحين والحين إلى القاهرة ليحضر حفلتها الغنائيّة ويعود في اليوم التالي إلى بيروت. وكانت المطربة المصريَّة الكبيرة، على سبيل الإكرام، تنزل ضيفة في منزله كلّما زارت بيروت، وتقيم بعض الحفلات لقريباته من العائلات البيروتيّة. وقد ظلّت وفيّة لذكراه بعد وفاته، فكانت تستجيب لدعوات ابنه حسن الجاك لإقامة حفلات غنائيّة في

---

(١) الزَّلْمَة أو الزَّلَمَة: كلمةٌ من أصل آراميّ بمعنى الرَّجل، أوِ القويّ. وتعني في السياق الشعبيّ اللبنانيّ: النَّصير والمُدافِع.

مصيف «عاليه». ويروون أنّ صديقًا عزيزًا على أحمد الجاك وافته المنيّة، فمشى في جنازته متأثّرًا تأثّرًا شديدًا. وفي مدفن الباشورة، وقف أحمد يرثيه، وحفظ النّاس من أقواله هذه العبارة: «لو كان الموت سَبع قتلناه، ولو كان جبل هدّيناه، ولو كان نار طفّيناها، لكن الموت...» ثمّ توقّف وقد عجز عن إتمام العبارة.. وبعد لحظات، ضرب طرف خنبازه بخيزرانته وأنهى رثاءه بقوله: «ولكنّه الموت.. كاف سين أختَك يا موت!»

وكان من الطبيعيّ أن يتطوّر معنى القبضاي فيتلبَّسَ صفاتٍ أخرى قد لا تمتُّ إلى الفروسيّة بصلة، وإنْ كان يظلّ يحتفظ بطابع الجرأة والإقدام.

من ذلك ما كان يمثّله قريبٌ لنا من آل السردوك، وهم عائلة مشهورة بتجارة الزيت، كانت تَمْلك في قلب البسطة التحتا منزلاً كبيرًا تُشرف شبابيكُه على الشارع العامّ الذي كان يجتازه الترام.

وكنتُ كلّما زرت مع والدَيّ ذلك المنزل أقف في صدر القاعة لأتفرّج على صورةٍ معلّقةٍ في وسط الجدار مؤطّرةٍ بإطار مذهَّب تمثّل رجلاً ربْع القامة يتّكئ على سيف، وقد كُتب في أسفل الصورة بخطّ جميل هذا البيت من الشعر:

دعوني في الحياة أَمُتْ عزيزًا
فموتُ العزّ خيرٌ من حياتي!

وممّا سمعتُ في زيارات متعدّدة وأسئلة متكرّرة يغذّيها فضولُ طفولتي، جمّعت قصّة قريبنا القبضاي أو البطل: أمين السّردوك.

كان شجاعًا مقدامًا يمتلك قوّة جسديّة نادرة، ويقولون إنّه كان يستطيع أن يُوقف على ذراعه ثلاثة أولاد. ولكنّه كان يكره «الاستعمار» التركيّ كرهًا شديدًا. من أجل ذلك تمرَّد على الخدمة العسكريَّة، وكان ينجح دائمًا في الإفلات من رجال الدَّرَك الذين كانوا يلاحقونه لإخضاعه لتلك الخدمة. إلى أنْ جاءه يومًا على عَجَلٍ دركيٌّ يحبّه من سكّان الحيّ ليحذّره من أنّ فصيلة من العسكر سيداهمون منزله بين ساعة وأخرى ليعتقلوه ويسوقوه إلى السّجن بتهمة العصيان. وإذ كان يستعدّ للفرار على حصانه، وصلت «الدوريّة» التركيّة، وكان في عدادها ذلك الدركيُّ الذي حذّره والذي كان متزوّجًا بامرأة تركيّة جلبها من إحدى الحانات البيروتيّة. ولكي يشقّ أمين طريقًا للهرب، أَطْلق رصاصَ بندقيّته على الأرض، فأصيب خطأً ذلك الدركيّ إصابة قاتلة. واقتيد السردوك إلى السجن، ولكنّ تدخُّل بعض المتنفّذين بالضغط والمال أدّى إلى إطلاق سراحه. ويقال إنّ آل سرسق المسيحيين الساكنين في حيّ الأشرفيّة، أصدقاءَ أمين السردوك، قد أرسلوا صفيحة ملأى بالذهب «اشتروا» بها تبرئة السردوك. غير أنَّ زوجة الدركيّ القتيل سافرتْ إلى «الباب العالي» (إستانبول، وهي عاصمة الدولة العثمانيّة) واستصدرتْ حُكمًا آخر باعتقال السردوك، وقصدت السّجن لتتشفّى منه وتَشمت به. غير أنّه شتمها وأوضَحَ أنّه لم يتقصَّد قتلَ زوجها، وهو من أصدقائه. وحين هزئتْ بأقواله وصفها بأنّها «شرموطة.» وكان أن ردّت عليه بأنّها ستعمل على استصدار عفو عنه، إذا نَعَتَ أمَّه بما نعتها به. فعاد إلى شتمها، مردّدًا كلمته مرّات عديدة.

يقول أقرباؤه الذين يروون قصّته: إنّه صعد برباطة جأشٍ إلى المشنقة حين صدر الحكم بإعدامه، وصاح قائلاً، موجّهًا كلامَه إلى امرأة الدركيّ القتيل:

السّجن لي مَسْجد والجنزير خلخال
والمشنقة يا عاهرة أرجوحة الأبطال

وأضاف يقول لها وهو يَدْفع الكرسيَّ من تحت قدميه: «اذْحشيها في طيزِك!»

لا يزال أفراد العائلة يروون قصَّة أمين السردوك مثالاً للشجاعة... والاعتزاز بالنفس.

* * *

قُبيل بلوغي الثانية عشرة، فُصلتُ فصلاً قاسيًا عن رفاق الحيّ في البسطة التحتا بالتحاقي أو إلحاقي بمعهدٍ دينيّ كان مقامًا في حيّ «رمل الزيدانيّة» ويَحْمل اسم «كلّيَّة فاروق الشرعيَّة ـ ذكرى الشيخين خالد والحوت». وكما يوضّح الاسم، فإنّ ملك مصر السّابق «فاروق» كان يُنفق على هذا المعهد، ويُشْرف عليه مفتي الجمهوريَّة اللبنانيّة الأسبق الشيخ محمّد توفيق خالد.

وقد روى لي المرحوم الأستاذ عبد الله المشنوق، حين انضممتُ إلى أسرة تحرير جريدة **بيروت** اليوميّة التي كان قد أسّسها مع الأخوين المرحومَيْن محيي الدّين النصولي وأنيس النصولي، أنه هو الذي رشّحني للدراسة الدينيَّة في ذلك المعهد.

كان المشنوق مديرًا لكلّيَّة المقاصد الإسلاميَّة في بيروت حين

جاءه المفتي يقترح عليه وَضْعَ لائحة بأسماء عددٍ من الطلاّب الذين أنهوا في الكلّيّة دراستَهم الابتدائية، فكان اسمي من بين أسمائهم. وبالرّغم من ابتهاجي بدخول الكلّيّة الشرعيّة آنذاك، فقد أحسستُ بالحزن حين تبيّنتُ أنّ تلك الدراسة الجديدة، بطابعها الرّصين وبما تفرضه عليّ من حياة «الطالب الدّاخليّ» في المعهد، ستَحْرمني رفاقَ البسطة التحتا وتنقلني نقلاً ظالمًا من مرحلة الطفولة ولهوها وألعابها إلى حداثة قاسية تحفّ بها الرصانةُ والجدِّيّة.

انقطعتُ عن لقاء رفاقي إلاّ في عطلة الأسبوع، أيْ بعد ظهر الخميس ويوم الجمعة، إذ كنتُ أقضي سائر أيّام الأسبوع طالبًا داخليًّا في الكلّيّة الشرعيّة. والدموع التي ذرفتُها في اللّيلة الأولى التي قضيتُها خارج المنزل فَجّرَها حنينٌ إلى البيت والأهل، وإلى الحيّ والرّفاق.

كان ارتدائي الزيَّ الدينيّ، الجبّة والعمامة، بعد أشهر قليلة من دخولي المعهد، هو الذي قطع علاقتي قطعًا كلّيًّا برفاق الحيّ. فقد حدث أنْ خرجتُ بعد ظهر خميس من عطلة الأسبوع بذلك الزيّ الدينيّ الجديد، وفي نيّتي أن ألقى الرّفاق. ولكنّي رأيتهم يقفون مذهولين حين اقتربتُ منهم وأنا أبتسم. ثمّ رأيتهم يتراجعون، كأنّي أخفْتُهم بهذا المظهر الجديد. وأحسستُ فجأةً بحاجزٍ غير مرئيّ ينتصب بيني وبينهم، فإذا بي أنفتل من غير إبطاءٍ، وأُسْرع في العودة إلى البيت بإحساسٍ من الخجل والخوف.

وصباحَ اليوم التالي، وقع ذلك الأمر الذي لا أستطيع، مدى العمر، أن أنساه.

فقد خرجتُ من المنزل، في طريقي إلى السّوق لشراء بعض الحاجات. فإذا بي أراهم، هم رفاقي، يَلْحقون بي فجأةً، كأنّهم تواعدوا على ذلك، ويصيحون بصوت واحد، وبإيقاع واحد:

- شيخ صغير! شيخ صغير! شيخ صغير!

لماذا يهزأ الرّفاق بي ويتنكّرون لي، كأنّهم ما عرفوني يومًا؟ أيكونون قد حَكَموا بأنّي خُنتُهم إذ ارتديتُ هذا الزيّ الذي يختلف عن أزيائهم؟ أم أنّ مظهري الجديد هذا كان بذاته مثيرًا للسخرية؟

حين وقفتُ أمام المرآة في المنزل تأكّدتُ من أنّ قِصَرَ قامتي هو السبب. صحيح أنّي ما أزال صغيرًا في السنّ، ولكنّي كنتُ كذلك قصيرًا. وقد أقنعتني الأيّام بأنّ ارتداء الزيّ الدينيّ هو الذي فَضَح ذلك القِصَرَ في القامة الذي لم يكن يَلْفت الانتباه. وعقدةُ النقص، أو القِصَرِ، تلك لم تلبث طويلاً حتّى تلبّست شكلاً من أشكال الحقد والنفور من الجبّة والعمامة، ولاسيّما بعد أن رأيتُني هدفًا دائمًا للأنظار، يتوقّف أصحابُها في الشوارع ليتابعوني بفضول: مشهدًا فريدًا يمثّله فتى صغير وقصير يرتدي لباسًا دينيًا يُفترض أن يُوحي بالوقار والرّصانة. وكان من أثر ذلك أن وجدتُني ألازم البيتَ في العطلة الأسبوعيّة، لا أغادره إلاّ لتأدية صلاة الجمعة في مسجد البسطة التحتا القريب.

وحدث مرّة أنّي كنت أمشي في الطريق حين سمعتُ صوتًا

نسويًا ينبعث من شرفة منزل مناديًا «يا شيخ! يا شيخ!» فرفعتُ بصري، وما لبثتُ أن خفضته حين تذكّرتُ أنّي «شيخ رصين عفّ» علّموه في المدرسة بيتًا من الشعر يقول:

وأغضّ طَرْفي إنْ بدتْ لي جارتي
حتّى يُواري جارتي مأواها

توقّفتُ عن السير لأعرف ما تريده منّي امرأةُ الشرفة، وقلت في نفسي: لعلّها تريد استفتائي في أمرٍ شرعيّ. ولكنّها ما لبثتْ أن قالت: «أرجوك، انتظرْ قليلاً حتّى أنادي أختي لتتفرّج عليك!»

تابعتُ سيري وأنا ما أزال غاضًا طرفي من هوانٍ ومذلّة، وجبيني يَرْشح عَرَقًا، وصوتٌ في قرارة نفسي يدمدم: «هكذا إذن يا صاحبي: لقد أصبحتَ فُرْجة!»

وازددتُ ملازمةً للبيت، وانغلاقًا على النفس.

ومن نافذة غرفتي في الطابق الثالث، كنتُ أتطلّع إلى رفاق الحيّ يلعبون ويمرحون، فأحزن لحرماني مشاركتَهم لهوَهم حزني لأنّهم قد نسوني تمامًا.

وفي الأشهر التي تلت، بدأ الرّفاق يشاركون، بطريقتهم، في المعارك الوطنيّة والقوميّة، فيمشون في تظاهرات صغيرة يهتفون بأصواتهم الثاقبة «فلسطين عربيّة» و«يعيش لبنان ي... ي... ي... يعيش!» ويتحدّوْن بقبضاتهم الصغيرة الجنودَ السنغاليّين المرابطين عند منعطفات الطرق، ويكتبون على الجدران، على سبيل السخرية بأولئك الجنود، تلك العبارة التي انتشرتْ آنذاك:

«MOI, CIVILISER VOUS!»[1]

ثمّ يضيفون إليها كلمةً واحدة: «طُزّ!»

وكان يؤلمني أنّي لستُ معهم، لاسيّما في تلك التظاهرة التي شكّلوها احتجاجًا على تنصيب إميل إدّه من قبل الفرنسيين رئيسًا للجمهوريّة. وقد رأيتهم من نافذتي يرفعون على كتف أحدهم رفيقَنا شكري الذي كان يردّد: «أنا إدّه جِبُوني!» فيجيبه الرّفاق «خَراي عليك، خَراي عليك!»

وسمعت ممّا يتعلّق بهذا السّياق ما كان يُروى عن طالب سوريّ حمله رفاقه على أكتافهم وراحوا «يعيّشونه» ويهتفون بسقوط الاستعمار الفرنسيّ، وقد تساءل أحد الفضوليّين الذي شاهد هذه التظاهرة عن سبب احتفال الطلاّب بزميلهم هذا وحملهم إيّاه على الأكتاف، فأجابه بعضهم: «لأنّه أخذ صفرًا باللّغة الفرنسيّة.»

ودعانا قريبنا توفيق المبسوط، ذاتَ يوم، إلى سهرة تحييها أمّ كلثوم في إذاعة القاهرة. فأبهجني أنّ تلك اللّيلة تتّفق مع عطلتي الأسبوعيّة: الخميس ـ الجمعة. واجتاحتني سعادةٌ شهوانيّة: سألتقي مرّة أخرى قريبتي «أميّة»... على سطح منزل المبسوط، أو في ذلك الركن المظلم من الدّار. بل ربّما تجرّأتْ أميّة فدفعتني إلى الغرفة المجاورة لمزيد من العناق والتقبيل!

ولكنّي تذكّرتُ فجأةً أنّي أصبحتُ شيخًا، وأنّ هذا لا يليق

(١) ومعناها: جئتُ لأحضركم (أي أجعلكم متحضّرين).

برجل دين، فضلاً عن أنّه محرَّم شرعًا. وتخيّلتُني جالسًا على السطح، مرتديًا الجبَّة ولابسًا العمَّة، فقلتُ إنّها لن تجلس ملتصقة بي احترامًا للزيّ الدينيّ، ولن أسعى إلى الالتصاق بها، احترامًا للزيّ الدينيّ، بل لن يتاح لي حتّى أن أتمايل طربًا لصوت أمّ كلثوم، احترامًا للزيّ الدّينيّ.

حين همّ الأهل بالانصراف لحضور تلك السهرة، اعتذرتُ عن مرافقتهم. ولشدّ ما أزعجني أنّ أحدًا منهم لم يسألني عن سبب الاعتذار. بل خُيِّل إليّ أنّ أخي الأكبر رمقني بنظرة شماتة!

وكان ذلك آخر عهدي بأُميَّة.

***

مع تخلّي رفاق الحيّ عنّي، وانكفائي إلى داخل البيت هربًا من العيون الفضوليّة، وتغيبًا «للمشهد» الذي يشكّله الشيخُ الصغيرُ المثيرُ للسخرية الذي كنتُه، ومع انقطاع علاقتي بأُميّة والقريبات، انغلقتُ على نفسي حزينًا، وضاقت بي الدنيا بين غرفتي الصغيرة في منزل «جبل النّار» وطاولةِ الدرس في «الكلّيَّة الشرعيَّة». ولم ينقذني من الاختناق إلاّ... الكتاب!

بدايات الأدب. . . والحبّ

قضيتُ في الكلِّيَّة الشرعيَّة خمسةَ أعوام (١٩٣٧ ـ ١٩٤١) خلعت في نهايتها الزيَّ الدِّينيّ، على غير رضًى من أبي. وفي العام الأخير منها انصرفتُ إلى دراسةٍ مكثّفةٍ خاصّةٍ في البيت لموادّ شهادة البكالوريا التي استعنتُ في بعضها، الرياضيّات والفرنسيّة تحديدًا، بأستاذين كانا يعطيانني بضع ساعات في الأسبوع. وكان معلّم الفرنسيّة هو الأستاذ خليل عيتاني الذي أصبح في ما بعد سفيرًا للبنان في واشنطن، وهو الذي حبَّب إليّ هذه اللّغة وأرشدني إلى عدد من أجمل الرّوايات الفرنسيّة وكان على رأسها رواية **مولن الكبير**، التي سيأتي ذكرها في ما بعد.

في الكلِّيَّة الشرعيَّة أحببتُ دروس القرآن التي كان يعلّمنا إيّاها الشيخ محمّد عمر الداعوق الذي كان نموذجًا للأخلاق والعلم الصحيح، بخلاف كثيرين من المدرِّسين المشايخ. وكان مدرِّس الحديث، الشيخ محمّد العربي العزّوزي، مضطرب المنهج، غائمَ التفكير، فلم يستطع أن يُحبِّبَ إلينا الحديثَ النبويّ الذي ظلّ الشكُّ حول صحيحه وموضوعه يدور في عقولنا.

وقد حفظتُ معظم القرآن، ولا أزال أصغي كلّ صباح إلى

تلاوات منه، لاسيّما التي يؤدّيها الشيخ محمّد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل والشّيخ محمّد سليمان السعدني، ولا أحبّ كثيرًا تلاوة أبو العينين شعيشع التي أراها متكلّفة كأنّما يؤدّيها المقرئ على مشقّة، ولا تلاوة عبد الباسط عبد الصّمد التي أراها تصعد من الرّأس لا من القلب.

وإذا كان في الدارسين مَنْ يجد في أسلوبي بعضَ تماسك، وفي لغتي بعضَ إشراق، فالفضل في ذلك يعود إلى القرآن الكريم.

وقد حفظتُ كذلك كثيرًا من الأحاديث النبويّة، لا بفضل مدرّس الحديث، بل بفضل قريبٍ لي لجهة أمّي هو جميل الداعوق، والدُ صديقي الدكتور بشير الداعوق. فقد كان ذلك الرّجل يحبّ الحديث ويشجّعني على حفظه. وقد كافأني ذات مساء على حفظي الأربعين النوويّة وإلقائي إيّاها في حفلٍ عائليٍّ أقامه في مصيف عيناب، وكانت المكافأة قلَم حبرٍ مذهّبًا أحسستُ إحساسًا غامضًا حين تناولتُه أنّه ربّما كان إرهاصًا بدرب الكتابة الذي سأسلكه كأنّه قَدَري.

والحقّ أنّ الشيخ الداعوق، الذي علّمنا الإنشاء فترةً من الزمن، قد تنبّأ من بعض فروضي التي صحّحها أنّني سأمتهن الكتابة. كما تنبّأ بذلك الشيخ علي الطنطاوي الذي درّسنا الأدب في الكلّيّة الشرعيّة مدّة عامين، فجَعَلنا نتذوّقه ونحبّه. وكنت أتمنّى دائمًا أن تنشر لي مجلّة **الرسالة** المصريّة بعض إنتاجي كما

كانت تنشر لأستاذي علي الطنطاوي.[1]

وبين الشيخين الداعوق والطنطاوي، جاؤونا بمدرّس للأدب العربيّ من دمشق يُدعى الشيخ صالح الفرفور لم نلبث طويلاً حتى اكتشفنا أنّه كان حافظَ شعرٍ لا مدرّسَ أدبٍ. وقد حضر درسَه الأوّلَ في صفّنا رئيسُ الكلّيّة الشرعيّة الذي أراد الفرفور أن يدغدغ مشاعره، فبدأ درسه بهذا البيت:

فمن غطارفةٍ في جلّقٍ نُجُبٍ
ومن غطارفة في أرض لبنانِ!

---

(١) كتب الأستاذ علي الطنطاوي في ذكرياته (الجزء الرّابع ص ٥٧، منشورات دار المنارة بجدّة) المقطع التالي الذي يتحدّث فيه عنّي طالبًا في الكلّيّة الشرعيّة ببيروت:

«كانوا يُلْزمون الطلاّبَ بالعمامة البيضاء والجبّة السوداء، فكانوا يجدون حرجًا من الخروج بها في شوارع بيروت. وكان منهم طالب صغير ألبسوه الجبّة والعمامة، وجعلوه شيخًا قبل سنّ البلوغ. كان أصغر التلاميذ سنًّا وجسمًا، ولكنّه كان من أشدّهم ذكاءً ونباهة، فصار اليوم من أكبرهم اسمًا وفعلاً. فمِنْ فعله إنشاء مجلّة **الآداب** التي عاشت عمرًا وتخرّج فيها جماعةٌ من الشباب، هو الأستاذ سهيل إدريس. وقد زار المملكة مؤخّرًا وأجرت جريدة **الجزيرة** مقابلة معه، نُشِرَتْ في اليوم الأوّل من جمادى الثانية سنة ١٤٠١ وصف فيها كيف بدأ حياته في هذه الكلّيّة الشرعيّة، وقال بأنّه دخلها تلبيةً لرغبة أبيه الذي رأى اهتمامه بحفظ الأحاديث والقرآن فحكم - يقول - «بأنّي مرصود لحياة أدبيّة قادمة وألحقني بالكلّيّة، وكانت تهتمّ بتدريس التشريع الإسلاميّ والموادّ الدينيّة الأخرى، وقد بقيتُ فيها خمس سنوات، ودرّسني فيها كاتب كبير يعيش الآن، ومنذ فترة طويلة، في المملكة هو الشيخ علي الطنطاوي. وفي الواقع أنّ الشيخ الطنطاوي هو الذي بثّ فيّ حميّة الأدب، وكان له أسلوب تشويقيّ جميل. وكان كاتبًا معروفًا وقد تأثّرتُ به وبكتابته، وانصرفتُ إلى المطالعة وبدأت أميل إلى الأمور الأدبيّة» إلى آخر المقال...»

وهو لم يتورَّع عن الإشارة إلى نفسه لدى إنشاده الشطرَ الأوّل، ثمّ أشار وهو يتلو الشطر الثاني إلى رئيس الكلّيّة الذي ابتسم ابتسامة عريضة، وخرج من الصفّ مسرورًا.

وقد أرادنا الفرفور، وكنّا نتندّر باسمه الذي لم يكن يتناسب مع لحيته الطويلة وصرامةِ وجهه، أن نَحْفظ قصيدةً قرأها علينا بصوت جهوريّ وحركات مسرحيّة كان مطلعها:

أفاطم لو شهدتِ ببطنِ خَبْتٍ
وقد لاقى الهِزَبْرُ أخاكِ بِشْرَا

إِذَنْ لرأيتِ ليثًا أَمَّ ليثًا
هِزَبْرًا أغلبًا لاقى هِزَبْرا

تَبَهْنَسَ إذ تقاعَسَ عنهُ مُهْري
مُحاذرةً فقلتُ: عُقِرْتَ مُهْرا!

أَنِلْ قَدَميّ ظَهْرَ الأرضِ إنّي
رأيتُ الأرضَ أَثْبَتَ منكَ ظَهْرا!

وحفظنا هذه الأبيات وما يليها، وسمّعناها في اليوم التالي، مقلّدين الأستاذ الذي كان يبتسم راضيًا. إلى أن جاء دورُ طالب كان معروفًا بجرأته ومجونه، وهو المرحوم طه الولي، الذي اشتهر في ما بعد بكتاباته الاجتماعيّة، فأخذ يُنشد الأبياتَ متمهّلاً، ويتقصّد التوقّف عند كلمة «هِزَبْر» يفخّم فيها حرفَ الباء، وحين بلغ السطر الثاني من البيت الثاني، حرّف كلمتيْ «لاقى هِزَبْرا» بحيث أَلْحَقَ هاءَ «هزبرا» بـ «لاقى» التي أصبحت «لاقاه»، وأطلق الكلمة الأخيرة وحدها، مفخّمةً طنّانةً!

وإذ ينفجر طلاّب الصفّ بالضحك، **ينفجر الأستاذ بالغضب** ويَطْرد طه، الطالبَ الماجنَ القليلَ الأدب.

ويبدو أنّ هذه الواقعة تركتْ أثرًا عميقًا في نفس المدرّس، فَلَمَّ أمتعته بعد أيّام وترك الكلِّيَّة عائدًا إلى دمشق. ويومذاك، قال زميلنا طه:

ـ لقد فَرَّ الفرفور!

* * *

استأثر الأدب واللغة، من دون الدروس الدينيَّة، باهتمامي، فأقبلتُ عليهما في اللغتين العربيّة والفرنسيّة. وبذلتُ جهدًا كبيرًا في تعلّم الفرنسيّة التي لم تكن الساعتان في الأسبوع تكفيان إطلاقًا لاستيعابها والوقوفِ على أسرارها. وكنتُ أقضي كلّ ساعات الفراغ في مطالعة الروايات والقصص الفرنسيّة التي كانت تمتلئ بها خزائنُ المكتبة في الكلِّيَّة، وكانت السفارة الفرنسيّة قد قدّمتها هديّةً للمعهد. وفي هذه المكتبة بدأتُ أمارس الترجمة عن الفرنسيّة، وأُمضي الساعات الطوال منقِّبًا في المعجم الفرنسيّ وفي المعجم الثنائيّ الفرنسيّ العربيّ، حتّى حسبتُني قادرًا على ترجمة الرواية الرائعة التي كانت قد ملكتْ عليّ مشاعري: **مولن الكبير** Le Grand Meaulnes من تأليف آلان فورنييه.

وكنت كلّما فرغتُ من ترجمة فصل من الرّواية، بَيَّضتُه وأرسلتُه بالبريد المسجّل إلى مجلّة **الرّواية** التي كان أحمد حسن الزيّات قد أصدرها في القاهرة، شقيقةً لِ **الرّسالة**. ولكنّ الزيّات

لم يَنْشر الترجمة، فأصابتني من ذلك خيبةٌ شديدة، لاسيّما أنّ بعض المجلاّت اللبنانيّة كـ **المكشوف والأمالي والجمهور** كانت قد بدأتْ تَنْشر لي. وكان أن أقسمتُ أن أُصدر في المستقبل، بعد أن أَفْرغ من التخصّص، مجلّةً أنشر فيها ما أُنتجه وينتجه الأدباءُ العرب الذين يَحْرمهم التزمّتُ الزيّاتيُّ تفتُّحَ براعم مواهبهم على صفحات مجلّتيه!

* * *

ورواية **مولن الكبير** هي التي جعلتْ «حنان إ. . .» تحبّني في ذلك الصَّيف من عام ١٩٣٩ الذي قضيناه في مصيف «بوارج» المُطلّ على سهل البقاع.

ذلك أنّنا أصبحنا جيران أسرة حنان في ذلك المبنى الذي استأجر أبي لنا طابقه السفليّ، فحَلَلْنا فيه قبل أن يَصْعدوا من بيروت فينزلوا في طابقه العلويّ.

وحين رأيتها تطلّ للمرَّة الأولى من شرفة منزلهم، أصابني جمالها بما يُشبه الذهول.

كانت ذات عينين سوداوين كبيرتين، وشعرٍ أسود طويل مسترسلٍ على الكتفين، وبشرةٍ ناصعة البياض.

ومنذ تلك اللّحظة، أصبحت الشرفة محطّ نظري معظمَ النّهار.

وكان في حديقة منزلنا حوضُ ماءٍ تتوسّطه نافورة، حسبتُه جُعل هناك ليتسنّى لمن يجلس إليه أن يُعلّق بالشرفة العليا عينيه.

وعصر اليوم التالي، وقفتُ عند حافّة الحوض متّجهًا إلى سهل البقاع، ورفعتْ أذان العصر.

وحين انفتلتُ لأدخل المنزل رأيت أنّ الأذان قد دفع أفراد أسرتها جميعًا للخروج إلى الشرفة، فهززتُ لهم رأسي بمثابة التحيّة، وسمعتُ أباها يقول: «تقبَّلَ الله»، ثمّ سمعتُ حنان تقول بصوت فيه بُحّة خفيفة: «يسلَمْ صوتك!»

التقيت حنان في غابة صغيرة، غير بعيدة عن المنزل.

كنتُ جالسًا في ظلال صنوبرة، أراجع ترجمة بعض فصول مولن الكبير تميهدًا لتبييضها، حين رأيتُها تنبثق أمامي، وإلى جانبها أخوها الذي يصغرها سنًّا وبيده بندقيّةُ صيدٍ صغيرة من ذوات «الخردقة» الواحدة.

وكان أوّل سؤال طرحَتْه عليّ:

- أصحيح أنّك شيخ؟

ارتبكتُ مضطربًا وأنا أهزّ رأسي إيجابًا بلا كلام. ولا بدّ أنّها قد لاحظت ارتباكي فقالت:

- عفوًا.. لم أرد أن... ولكنّك... صغير على المشيخة!

ظللتُ على صمتي، فكان أن انحنت قليلاً فوق الأوراق التي بين يديّ، وطرحتْ سؤالها الثاني:

- ماذا تعمل؟

قلت: أترجم رواية...

ضحكتْ حنان ضحكة عذبة وقالت:

ـ ولكنّك... صغير على الترجمة!

ضحكتُ بدوري وأنا أقول بلهجة احتجاج:

ـ أوه! صغير... صغير... ولكنّي أكبر منك على كلّ حال!

وضعتْ حنان يدها فجأةً على كتفي، وغضّنتْ عينيها السوداوين قائلة:

ـ هل تقرأ لي بعضَ ما ترجمتَ؟

خفق قلبي وأنا أقول لها:

ـ اجلسي إذن!

كان أخوها قد تركنا ليلاحق عصفورًا على شجرة قريبة. ولم تتردّد لحظة، فارتمت على مقربة منّي وهي ترفع قليلاً ذيل تنّورتها.

كنت أوشك على الانتهاء من قراءة الفصل الأوّل حين عاد أخوها يصيح:

ـ اصطدت عصفورين!

قالت حنان: براڤو! شاطر!

ثمّ أضافت: سنعود إلى البيت، ولكن انتظرْ قليلاً.

ثمّ رجتني أن أكمل الفصل، حتّى إذا فرغتُ منه، نهضتْ والتأثّر ينبض في عينيها الجميلتين:

ـ إنّه جميل جدًّا! شكرًا لك... يا شيخ سهيل!

قلت وأنا أحسّ الخيبة ترتسم على وجهي:

ـ بلا «شيخ» هذه!

قالت عفاف بدلال:

ـ طيّب لا تزعل... يا أستاذ سهيل!

وقبل أن يتاح لي أن أقول شيئًا، سارعتْ تمسك بيد أخيها وهي تقول قبل أن تنطلق:

ـ غدًا... في مثل هذا الموعد، الفصل الثاني!

ولم تنتظر جوابي، بل أطلقتْ ضحكةً لم أميِّزْها عن زغردة العصافير فوق رأسي.

وظلّت عفاف توافيني كلّ يوم إلى الغابة برفقة أخيها الذي كان يتركها سريعًا، منصرفًا إلى صَيْده، فأقرأ لها فصول **مولن الكبير** الذي كانت تزداد تعلّقًا بقصّة حبّه لـ «إيڤون دو غاليه» وبمغامرته السحريّة العجيبة.

في ذلك الصَّيف من عام ١٩٣٩، عرفتُ أوّل حبّ حقيقيّ استولى على مشاعري واكتوت منه ضلوعي، واستخفّ به والداي، مُنكرَيْن عليّ، وأنا لم أتجاوز الرابعة عشرة، أن أنجرف فيه. ولكنّني لم أُبالِ بمعارضتهما، وظللتُ أغذّي هذا الحبّ مع حنان طوال الصّيف، ونلتقي أكثر ما نلتقي في غابة بوارج. بيد أنّ أجمل ساعة قضيتها معها، تلك التي جمعتني بها يومَ خرجتْ عائلتي وعائلتها في نزهة إلى «شتورة» تواطأنا على ألاّ نصحبهما فيها. فكان أن صعدتُ إلى منزلهم في الطابق الأعلى، وبقيتُ معها زهاء ثلاث ساعات منحتني في نهايتها عناقًا طويلاً وقبلةً محمومة.

في ذلك الصَّيف، كتبتُ عن ذلك الحبّ ما لا يقلّ عن سبعين

صفحة تتّخذ شكل مذكّرات روائيّة تحمل عنوان «أشعّة الفؤاد» لا أزال أحتفظ بمخطوطتها، وهي نموذجٌ عن رومنطيقيَّة ساذجة ظلّت آثارُها تَطْبع قصصي حتّى الخمسينيّات، أيْ إلى ما بعد سفري إلى باريس عام ١٩٤٩ للتحضير لشهادة الدكتوراه في الأدب.

لم نقضِ ذلك الصَّيف كلَّه في بوارج، إذ إنّ الحرب العالميَّة الثانية أُعلنتْ في أيلول من ذلك العام، فغادر معظم المصطافين إلى العاصمة، ولم تُتحْ لي وإنْ فرصة توديع حنان.

ثمّ رأيتُها، بعد ذلك، مرّةً واحدة حين دخلتْ عليّ فجأةً غرفتي في منزلنا ببيروت، في حيّ البسطة التحتا، وكنتُ في ساعة القيلولة، وكانت مع أفراد أسرتها في زيارة غير متّفق عليها لأُسرتنا. وقد أربكتني المفاجأة بحيث لم أنهض من سريري إلاّ بعد أن خرجتْ حنان من الغرفة، وهي في مثل ارتباكي.

ثمّ بَلَغَنا أنّ تاجر أغنام ثريًّا تقدّم يطلب يدها، وأنّ أباها شجّعها بل دفعها دفعًا إلى القبول به زوجًا.

واكتشفتُ في ما بعد أنّ أبا عفاف لم يكن إلاّ ذلك التاجر الذي كان قد خَدَعَ أبي بطلب كفالته وهو على وشك الإفلاس، موجّهًا بذلك إلى أبي تلك الضربةَ القاسيةَ التي أودت به، هو أيضًا، إلى الإفلاس.

وظللتُ أشعر طويلاً أنّ والد عفاف قد وجّه لي، أنا أيضًا، ضربةً قاسية حين انتزع حبيبتي منّي ليلقيها بين ذراعَيْ تاجرٍ مثله.

من الصحافة . . . إلى الأدب

دخلتُ الحياة الأدبيّة من باب الصحافة.

فقد تلقّيت ذات يوم، من عام ١٩٤٣، رسالةً من المرحوم سعيد فريحة، رئيس تحرير مجلّة **الصيّاد**، يدعوني فيها إلى زيارته، بعد أن حدَّثه عنّي «صديقٌ للطرفين» كما قال، في معرض البحث عن «محرّر نشيط.»

وحين قابلتُ سعيد فريحة في مكتبه، وكان آنذاك في منطقة «العازاريّة»، سألتُه عن طبيعة عملي في التحرير، فأجابني بلا تردّد:

ـ مِنْ كلّه!

سألت: أيّ باب في المجلّة؟

قال: جميع الأبواب!

أردت أن أعترض، فقلت: ولكن. . .

قاطعني قائلاً: لا «لكن» ولا «إنّ» ولا «لعلّ!»

فضحكت. وتابع سعيد فريحة:

ـ تَطْرق جميع الأبواب... إلى أن يَفْتح اللهُ عليكَ بأحدها، فتدخل!

وضحكتُ مرّة أخرى، ثمّ سارعتُ أقول:

ـ موافق... فلنجرّبْ!

قال: عظيم!

وأضاف بعد لحظات:

ـ أمّا الرّاتب، فنتّفق عليه بعد التجربة!

فاستحيَيْتُ أن أسأله عن مدّة التجربة، بالرّغم من أنّ أسرتي كانت في مسيس الحاجة إلى مشاركتي في نفقاتها.

واحتللتُ في اليوم التالي غرفة صغيرة في مكتب **الصيّاد** كانت تُطلّ على بيوت قديمة في العازاريّة. وجلستُ وراء مكتبي، والزهوُ يملأ نفسي، وطلبتُ فنجانًا من القهوة، وبسمةٌ من سخرية ترتسم على شفتَيّ: «قال بعد التجربة... قال!» ثمّ تساءلت: «والقصص التي تنشرها لي مجلاّت **الأمالي** و**المكشوف** و**الجمهور**... ألم تدخل في التجربة وتخرج منها بنجاح؟»

وفي ظهيرة ذلك اليوم نفسه، قدّمتُ لسعيد فريحة قصّة قصيرة كنتُ كتبتها منذ أيّام، فنظر إلى عنوانها ثمّ قال بسرعة:

ـ لا أحبّ القصص!

أُصبتُ بالذهول، غير أنّي تمالكتُ نفسي وتساءلت:

ـ ولكن كلّ ما تكتبه في «الجعبة،» يا أستاذ سعيد، هو من القصص!

قال بكلّ هدوء:

- ولكنّها غير شكل!

ثمّ استدرك يقول:

- ومع ذلك، سأقرأ القصّة الآن. تفضّل بالجلوس.

جلستُ وأنا أرتعش. وفيما هو يقرأ القصّة، تذكّرتُ ما أعرفه عن سعيد فريحة من أنّه رجلٌ أُمّيٌّ لم يَدْخل مدرسة، وأنّه كان حلاّقًا، ثمّ بائعَ صحف... على ما روى في «جعبته»... في حين أنّي تعلّمتُ في الكلّيّات، وبدأتُ دراسة الحقوق في الجامعة وإنْ كنت فشلتُ في الامتحان الشفهيّ تلك السنة. وها هو الآن يُخْضِعني لامتحان خاصّ ولا أدري إذا...

قطع عليّ صاحب **الصيّاد** حبل التفكير حين مدّ يده بالقصّة يعيدها لي قائلاً:

- ثقيلة الدم... وإنْ كانت جميلة اللّغة!

وبالرّغم من شعوري بأنّه «جَرَح وداوى» بهذا الحُكم، فقد قلتُ معترضًا:

- القصّة إمّا أن تكون جميلة، أو رديئة... أمّا ثِقَل الدّم..

قاطعني يقول:

- لا تزعلْ يا أستاذ.. إذا قلتُ لك إنّ ثقل الدم هو من الرداءة!

ثمّ أردف وهو يمدّ لي يده بمجموعة رسائل وأوراق التقطها عن مكتبه:

- تفضّل فاقرأها، واخترْ ما يصلح منها للنشر، وافتحْ بابًا جديدًا

تُعلّق فيه على ما يَلْفت النظر ويثير الاهتمام في هذه الموادّ.

ثمّ أنهى كلامه ضاحكًا:

- ولا تَنْسَ المقياس: خفّة الدم!

ثمّ نهض وخرج دون أن يترك لي فرصةً للتعليق.

عدتُ إلى مكتبي الصغير يتجاذبني إحساس متناقض من الرّضى والسّخط: لقد أَخَذَ على القصّة ثقلَ الدمّ واعتَرَفَ بجمال اللّغة، فما يكون موقفي؟

وشعرتُ بضيق في الصّدر، فاتّجهتُ إلى نافذة المكتب أودّ أن أستروح هواءً يخفّف من ضيقي. وإذ ذاك رأيتُ تلك الفتاة على شرفة الطابق الثاني من البيت المقابل. ومنذ تلك السّاعة، انعقدتْ علاقةٌ بين نافذتي وشرفتها.

ثمّ انتقلت العلاقة فأصبحت بين يدي وهي تكتب الرسائل القصيرة وحديقة البيت المقابل وهي تتلقّى هذه الرسائل. ولم تلبث هذه الحركات المتواطئة أن أثمرتْ مواعيد مع «أناهيد».

وكرمى لأناهيد، تلاشت الاعتراضات على ديكتاتوريّة سعيد!

وبعد عدّة لقاءات تمّ بعضُها في دور السينما وتبادلنا في ظلامها القبلات والملامسات، انتهزتْ أناهيد فرصة غياب والدتها في سفرٍ إلى ذويها في «البقاع»، فاستقبلتني في منزلها، وشرّعتْ أمامي باب الأنوثة اللاّهبة، فأذاقت الشابّ ذا السبعة عشر عامًا الذي كُنتُه أُولى لذائذ الثمرة الناضجة.

ولم يمض وقت طويل حتّى بَلَغنا أنّ أملاك «العازاريّة» قد بيعت لبعض كبار المتموّلين، وأنّ الأبنية القديمة التي كانت قائمة

فيها ستُهدم ليُقام مكانَها أحدُ أفخم الأبنية في بيروت.

وبهدم مكاتب **الصيّاد** القديمة والبيوت المجاورة لها في المنطقة، انقطعت العلاقة بين النافذة والشرفة، ونزحتْ أناهيد مع أمّها إلى سهل البقاع.

وانتقلتْ مكاتب المجلّة إلى شارع اللّنبي، وعدتُ أواجه دكتاتوريّة سعيد فريحة الذي ينبغي الاعتراف بأنّه طوّعني لمزاجيّته. فصرتُ أكتب كما يريدني أن أكتب، وأتحدّث في موضوعات أَعدُّني دخيلاً عليها كموضوع المغنّين والمغنّيات الذين كتبتُ عنهم عدّة مقالات وصفها رئيس التحرير بأنّها ليست «ثقيلة الدم.»

وحدث أنّي اخترتُ للنشر، ذَات يوم، قصيدةً لطاغور ترجمها أحدُ القرّاء.

وفي الأسبوع التالي فوجئتُ بنشر رسالة في **الصيّاد** موجّهةٍ إلى محرّر باب «مِنَ القرّاء وإليهم» (وهو الباب الذي كنت أُشْرف عليه) وفيها يَكْشف كاتبُها أنّ قصيدة طاغور، المنشورة في العدد السابق، كان قد أرسلها إلى المجلّة منذ حين، وانتظر أسابيع فلم تُنشر، ثمّ عمد إلى إرسالها مرَّةً أخرى مدّعيًا أنّها مترجمة من طاغور، وهي ليست إلاّ من إنتاجه هو، فنشرها «المحرّرُ الغبيّ» (وكان لا يقصد طبعًا إلاّي. . .) لمجرّد أنّه نسبها إلى طاغور! وكانت هذه الرّسالة تحمل توقيع «منصور الرّحباني»، وهو لم يكن إلاّ أحد الأخوين رحباني اللذين طارت لهما، في ما بعد، شهرةٌ عظيمةٌ في تأليف الأغاني وتلحينها والتي خلّدتها فيروز بصوتها الرّائع.

كان نشر رسالة الرّحباني، من غير أن أطّلع عليها قبل النشر، «مَقْلبًا» آخر قام به سعيد فريحة، بالإضافة إلى مقلب منصور الذي تقبّلتُه ببرودة أعصاب، معزّيًا نفسي بأنّني ليس من المفروض أن أكون مطّلعًا على كامل أعمال طاغور لأكتشف ما قد يُنسب إليه تزويرًا. أمّا أن يوافق رئيسُ تحرير مجلّة على نشر إهانة لأحد محرّريها، بدلاً من أن يَحْذف النعت الذي يحمل هذه الإهانة، فأمر يتطلّب موقفًا يقتضيه الدفاعُ عن الكرامة!

كنتُ جالسًا وراء طاولتي في الغرفة المجاورة لمكتب صاحب المجلّة، أقلّب الأمر على وجوهه، باحثًا عن وسيلة ناجعة للاحتجاج، حين خرجتْ من غرفته فتاةٌ ممشوقة التفتت إليّ فتوقّفتْ لحظة ترشقني، من عينين سوداوين نفّاذتين، بسهمٍ اخترقني حتّى الشغاف. وذكرَت اسمي متسائلة، فأومأتُ برأسي إيجابًا.

ابتسمتْ وهي تمدّ يدها مصافحة، وقالت:

ـ كنتُ، منذ دقائق، أتحدّث مع «عمّو» سعيد عنك.

وجلستْ «د» على مقعد قبالة مكتبي، وبقيتْ دقائق معدودة أخبرتني فيها أنّها تتابع كتاباتي وتتذوّقها، وأنّها قريبة صاحب المجلّة، وأنّها تعدّ لشهادة البكالوريا. وحين خرجت «د» تيقّنتُ أنّني أُصبت منها بصعقة الحبّ، وأنّها سيكون لها معي شأن!

وفي ذلك اليوم، نسيت «مقلبَيْ» الرّحباني ورئيس التحرير، أو تناسيتهما. ومنذ ذلك اليوم، تسمّرتُ إلى مكتبي في **الصيّاد**

أنتظر إطلالة البسمة على شفتيْ «د» والنظرة الساحرة في عينيها السوداوين.

وبالرّغم من أنّ «أناهيد» كانت قد كَسرت التهيُّب الذي كنت أشعر به تجاه جسد المرأة، وأنّي كنتُ بالتالي مدعوًا لمزيد من الجسارة في خوض التجربة الجديدة، فقد كنتُ أرتدّ إلى الفتى الرّاعش، المتعثّر المرتبك الذي عاشني وعشته في عهد المراهقة، كلّما لقيت «د».

وقد انقضت أسابيعُ طويلة قبل أن أفاجئ نفسي، حين جاءت «د» إلى المكتب الذي كان صاحبُ المجلّة غائبًا عنه، بأن تناولتُ يدها التي امتدّت لمصافحتي، فرفعتُها إلى شفتيّ وقبّلتها.(١) وحين نظرتُ إلى وجهها ورأيت ذلك الاحمرار يخالط وجنتيها، ويشكّل مع بسمتها العذبة وشعاعِ عينيها السوداوين لوحةً من الجمال النادر، سمعتُني أتمتم، وأنا شبه فاقد الوعي، «حبيبتي د..» فمالت عليّ تُلامس رأسي بشفتيها، ثمّ انفتلتْ هاربة.

وغابت «د» في فصل الصّيف التالي الذي قَضَتْه في قبرص واليونان مع بعض أقاربها، فكتبْتُ لها رسالتين ورجوتها أن تكتب لي، ولكنّها ردّت برسالة قصيرة قالت فيها إنّها تخجل من أن تكتب لي، وتلحّ إلحاحًا يشبه التوسُّل والابتهال ألاّ أنقطع عن مراسلتها.

---

(١) من هذه الحادثة، استوحيتُ قصّة «قبلة اليد» المنشورة في مجموعة **أقاصيص أولى**.

قالت لي «د» حين عادت من رحلتها إنّ رسائلي إليها أجمل هديّة تلقّتها، وستحتفظ بها إلى آخر عمرها. وطوال أربع سنوات أو خمس قضيتها في **الصيّاد**، ظلّت علاقتي بـ «د» علاقة حبّ هادئ صامت، تضيّق عليه المواضعاتُ الاجتماعيّة، وعلى رأسها اختلافٌ في الدِّين لا يجرؤ أحدُنا أن يخترقه ليطلق لنفسه حرِّيَّة اتّخاذ موقف حاسم في اتّجاه الارتباط أو الالتزام.

أكان إذن هو الحبّ المستحيل الذي وعاه كلانا، في آخر المطاف، فقرّرتْ هي أن تستجيب لدعوة أقرباء لها في البرازيل كان فيهم مَنْ يطمح إلى التزوّج بها، في الوقت الذي قرّرتُ فيه أنا أن أستجيب لدعوة باريس، منذ أخذتُ أزهد في مواصلة العمل الصحفيّ؟

***

على أنّ المتَنَفَّس من هذا الحبّ المقهور، الذي لم يَسْمح لنا بأكثر من بضع قبلات استرقناها استراقًا، كان مزيدًا من التفتُّح الأدبيّ تجلّى بأن شرّع لي سعيد فريحة بابَ القصّة القصيرة، متراجعًا عن موقفه السلبيّ أمام التحدّي الذي كنت قد حسمت فوزي به نتيجة لمواظبتي على كتابة القصّة، ولأنّني كنت أحتال على سعيد فريحة، فأتسلّل إلى صفحات المجلّة عن طريق سرد بعض الأحداث والمشاهدات والتعليقات بأسلوب قصصيّ أمزجه بروح الفكاهة ليصبح سعيد فريحة أكثر تقبّلاً له من القصّة الفنّيَّة. فقبضها سعيد، وبدأ ينشر لي، إلى أن اختلط عليه بعدها الحابل بالنابل والقصّة بالسّرد، فصرت «أمرّق» ما يحلو لي، ولاسيّما

أن ترجمتُ عن الفرنسيّة عددًا من القصص نشرتها **الصيّاد** دون أن تشير إلى مترجمها، لأنّ سعيد فريحة لم يكن يطيق إثبات اسم أحد سواه في مجلّته. كما أنّه كان يعاني من عقدة نقص مبعثها جهله في اللّغات الأجنبيّة. لذلك كان يريد تمويه الموضوع، وخصوصًا ما يتعلّق بالاسم، مكتفيًا بوضع عبارة «عن الفرنسيّة» أو «عن الإنكليزيّة» تحت كلّ قصّة مترجمة، ولاسيّما إذا كان مترجمها من محرّري المجلّة. وقد حدث أن طلب منّي ذات يوم أن أحضر معه لقاءً صحفيٌّ فرنسيٌّ أراد أن يزور مجلّة **الصيّاد** ويقابله، فرغب إليّ حضور اللّقاء لأكون مترجمًا بينهما. فوافقت بلا تردّد، لأنّني قرّرتُ أن أحاول الانتقام منه على اضطهاده إيّاي. وحين تمّ اللّقاء، أخذ الصحفيّ الفرنسيّ يطرح على سعيد فريحة أسئلته، وتجنُّبًا للإحراج كان سعيد يجيب على معظم الأسئلة بالعبارة الفرنسيّة الوحيدة التي كان يعرفها وهي «comme ci, comme ça» ومعناها «بين بين»، إلى أن سأله الصحفيّ إن كان عنده أولاد، فأجابه سعيد: «comme ci, comme ça». فسأله الصحفيّ مستغربًا: كيف ذلك؟ إمّا أن يكون عندك أولاد أو لا يكون! أمّا أنا فقد تقّصدت في تلك اللّحظة أن أظلّ صامتًا «لأبعصه!» ولكن يبدو أنّ «سعيد» لاحظ علامات التساؤل والاستغراب على وجه الصحفيّ الفرنسيّ فأحسست بقدمه تضرب قدمي تحت الطاولة، ويقول لي: «تَرْجِمْ يا عكروت.. تَرْجِم».

وربّما كان خير نموذج لـ «احتيال» الذي كنت أمارسه على سعيد فريحة ما نَشَرَتْهُ **الصيّاد** تحت عنوان «على طريقة

روميو»[1]، وهذا هو النصّ:

«يزعم بعض النّاس أنّني لا أفهم شيئًا من لغة العيون والشفاه والقلوب... وما يمتّ إلى ذلك من صلات! وكأنّ هؤلاء يريدون استفزازي بهذه التهمة، بالنّسبة لما قد يكون معروفًا عنّي من تقوى وصلاح... ولكن يغربُ عن بالهم أنّ التُّقى والهوى من منبع واحد: هو القلب... وأنا أزعم أنّ من عنده تقوى لابدّ أن يهوى!... وليس العكس صحيحًا، كما قد يدّعي صاحب الصيّاد!

ولكنّ هواي يختلف عن هوى بعض النّاس: لقد عشقت كما عشق المبكِيّ على شبابه مجنون ليلى: دنيا الحبّ الأفلاطوني والهمسات والأمنيات البعيدات!

وأذكر أنّني نهضت ذات صباح في القرية التي كنّا نصطاف فيها، فحملت الإبريق لأملأه من العين. وحين عدت أحسست أنّني سُمّرت في مكاني... وظلّت عيناي محدّقتين بهذا الطيف الذي برز على شرفة الطابق العلويّ من البيت الذي نستأجره... وحين نظرتُ إليّ فتاة الثوب الأزرق، وطيف بسمة يجول على شفتيها، سقط الإبريق من يدي... وبينما كنت أنظر ـ بكثير من الخجل ـ إلى الماء يسيل على ثوبي وقدميّ، سمعت ضحكة رنّانة تملأ الجوّ صدى... ثمّ نظرت إلى الشرفة فإذا هي خالية!

وفيما بعد، علمت أنّ هذا الذي يُسقط الإبريق من اليد، ويُحطّمه شظايا، هو الذي يدعى بـ «الحبّ...»

ومن يومها ظللتُ معلّقَ النظر بالشرفة وقد تحوّلتُ إلى كتلة من

---

(١) مجلّة الصيّاد العدد ٨٩، ٢٥ ت٢، ١٩٤٥ .

من عواطف مرهفة وشعور رقيق... فإذا خرجتْ فتاة الثوب الأزرق إلى الشرفة، أحسستُ بقدميها تسيران على قلبي، وإذا تكلّمتْ كلمة، ملأتْ أذنيّ أصداء وأغاني، وإذا نظرت إليّ، ولو عفوًا، استجليت في نظرتها دنيا من الأماني الزاخرة بالصبابات!

ورحتُ أعيش في جوّ من الخيال الحالم، وتناولتُ الكتب الغراميّة أقرأها وأحفظ ألفاظها ومعانيها عن ظهر قلب... وقرأتُ روايات رفائيل وغرازييلا وروميو وجولييت... وخصوصًا هذه الأخيرة، قرأتها مرّات، وأعجبت بذلك الموقف البديع: روميو يتسلّق شرفة دار الحبيبة جولييت!

ورأيتها تخرج ذات أصيل وحدها للتنزّه عبر الحقول، فأسرعت بارتداء ثيابي، وتصفيف شعري، ولم أنس طبعًا أن ألبس «بنطلونًا» طويلاً يستر ذلك القِصَر، لعنه الله! وتبعتها على مهل، حتّى إذا بلغنا منعطفًا، تنحنحتُ قليلاً، فتنبّهتْ إليّ، فقابلتها ببسمة ساهمة. وسمعتها تقول وهي تقلب شفتيها:

- شو بدّك... يا صبي... لاحقني؟

فاحمرّ وجهي، بل الأصحّ أنّه اصفرّ... ولكنّي غضبت: قطيعة... شو «يا صبي»؟ ألا تعرف أن تنظر إلى عينيّ فتجد أنّني شاب، بل رجل؟... قلت بكثير من الجفاصة والجفاء:

- مش لاحقك... الطريق مش ملكك!

وحثثت خطاي حتّى سبقتها، ثمّ التفتّ ونظرت إليها نظرة أسخف من بسمتي تلك. وإذا بي أسمعها تقول:

- يا الله.. ما أثقلك!

لا... لا... لقد «زادتها» حقًّا! وقفت وعبست، ثمّ انتظرتُ قليلاً وقلت:

- يا مدموزيل... اعملي معروف، اضبطي حكيك...

ثمّ انفتلتْ في طريق العودة وعدتُ أنا إلى البيت، مَرْخِيَّ الأذنين طبعًا!

على أنّي لم أفقد الأمل، وبعد أسبوع كتبتُ على ورقة صغيرة هذه الجملة «أحبّك من صميم فؤادي» ورميتُ بها إلى الشرفة، ورحتُ أترقّب خروجها... ولم أنتظر طويلاً، فإذا هي تتناول الورقة وتقرأها بسرعة، ثمّ تأخذها بأطراف أصابعها، وتمزّقها على مهل إربًا إربًا، وترمي بقصاصاتها في الهواء ثمّ تدخل البيت... ورحتُ، أنا، أتطلّع إلى قصاصات فؤادي تتجاذبها النسمات في الجوّ...

ومع ذلك، فلايزال هناك أمل! وذات مساء، بينما كان القمر ينثر شعاعه المذهّب على الحقول والأشجار... وبينما كان الهدوء يشمل القرية، خرجتُ لأطبّق الخطّة الرائعة التي اخترعها روميو الذكيّ! وخلعتُ حذائي، ورحتُ أتسلّق الشرفة دون ما ضوضاء، حتّى بلغت حاجزها، فأردت أن أتعلّق به، فإذا يدي في الهواء... وإذا أنا أسقط على الأرض، فتُفكَشُ يدي، ويُرضُّ جسمي... وطبعًا رحتُ ألعن روميو الغبيّ، وجولييت الحمقاء، وشكسبير السخيف جملة واحدة!...

والظاهر أنّ فتاتنا الحبيبة سمعتْ ضجّة سقوطي، فسارعتْ إلى الشرفة حاملة مصباحًا... وما كادت تراني مرميًا على

الأرض، ألعن نحس طالعي، حتّى قالت: «هيدا إنت؟. . . حسبت شي حرامي!. . .» وأغمي عليّ. .»

من المؤكّد أنّ ما حمل سعيد فريحة على نشر هذا المقال ـ القصّة هو روح السخرية بالنفس التي لجأت إليها، والتي لولاها لاعتبرها سعيد «ثقيلة الدم.»

والحقُّ أنّي كنت قد ثبَّتُ موقعي في المجلّة، وكان صاحبها قد بدأ يعتمد عليّ في عدد من أبوابها، ويكلّفني بكتابة بعض المقالات التي لا يجد الوقت لكتابتها. وينبغي الاعتراف بأنّ عملي في هذه المجلّة، وفي جريدة **بيروت** اليوميّة، طوال سنوات، قد وضعني في صميم الحياة السياسيّة اللبنانيّة، فعايشتُ فترةً من التاريخ الوطني حافلةً بالأحداث، وعلى رأسها اعتقال أركان الحكومة اللبنانيّة في قلعة راشيّا عام ١٩٤٣ ونضال الشعب اللبناني ضدّ الانتداب الفرنسيّ في تلك الفترة، ثمّ عودة الوزراء منتصرين. وقد نضج وعيي القومي وعُمِّقَ حسّي الوطنيّ على صفحات هذه المجلّة التي حملت آنذاك راية القوميّة العربيّة، كما أنّ جريدة **بيروت** التي كان شعارها «العروبة فوق الجميع» ركّزتْ توجُّهي والتزامي القومي. وأذكر أنّي بدأت مبكرًا في كتابة القصص المستوحاة من النضال العربيّ الذي سيظلّ محور اهتمامي على صعيد الإنتاج الأدبيّ. وقد نشرت **الصيّاد** أوّل قصّة وطنيّة لي في عددها ذي الرّقم ٩٣ بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٥ بعنوان «تذكار ثورة» التي أحكي فيها قصّة الفتى «هاني غندور» الذي شارك في إحدى المظاهرات ضدّ الفرنسيين، وأصيب

برصاصة في ساقه خلّفتْ لديه عرجًا دائمًا.

وفي مكتب **الصيّاد** كنت أجتمع إلى رجال السياسة الذين كانوا يتردّدون على سعيد فريحة، ومنهم الزعيم رياض الصلح الذي كنت أكنّ له إعجابًا كبيرًا؛ والمير مجيد أرسلان الذي كان يعلّق دائمًا مسدّسه إلى جنبه، ولا يني يفتل شاربيه ويضرب بنطاله بخيزرانته، وأفاجأ أبدًا بصوته «الرّفيع» الرّقيق الذي لم يكن يتناسب مع ضخامة جسمه. ولم أكن أحبّ الاجتماع بـ «الزعيم» أحمد بك الأسعد حين يزور صاحب **الصيّاد** لأنّني كنت قد رأيته في مشهد لا أنساه:

فقد كنتُ ذات يوم أنتظر دوري عند الحلاّق «جورج» في ساحة البرج، حين دخل الأسعد، فأعطاه الحلاّق الدور الأوّل قبل ثلاثة أشخاص كانوا قد سبقوه، وكنتُ أحدهم. ولم أكن أستطيع الاحتجاج؛ فالأسعد زعيم عشائريّ كبير تنحني أمامه الهامات. وسكتُّ على مضض. ثمّ حدث أن تقدّم ماسحٌ للأحذية، فسلّم على الزّعيم الذي مدّ له يده فقبّلها، ثمّ جلس ليمسح له حذاءه. ولم تمض دقيقة حتّى شاهدنا قَدَمَ الأسعد تركل وجهَ ماسح الأحذية ركلةً شديدة أدمت شفتيه وأنفه، وسمعنا الزعيم يكيل له الشتائم لأنّه، وهو يمسح الحذاء، لَوّثَ، بغير قصدٍ طبعًا، جراب الأسعد الأبيض ببعض صباغه!

لم أطق أن أرى هذا المشهد، فأخذتُ أغلي، ثمّ قاومتُ رغبتي في الانفجار، فخرجتُ مكتفيًا، تعبيرًا عن الاحتجاج والاشمئزاز، بأضعف الإيمان!

أمّا في جريدة **بيروت**، فقد انتُدِبْتُ طوال ثلاثة أعوام لحضور جلسات مجلس النوّاب ووَصْفِ وقائعها. وقد تابعتُ عن كثب خطب النوّاب، وأزعجني معظمهم إزعاجًا شديدًا بجهلهم اللّغَة العربيَّة وارتكابهم الأخطاءَ الفادحة وهم يخطبون. ولم أستطع أن أكبت ضحكة فاجأت حلقي حين سمعتُ في إحدى الجلسات رئيسَ المجلس المرحوم صبري حمادة يخاطب النوّاب بقوله: «أيُّها النوّابون!» وحين تماديتُ في الضحك، هدّدني شرطيُّ المجلس بإخراجي من قاعة الصحفيِّين إذا لم ألتزم حدود الأدب.

وكان رئيس الوزراء المرحوم سامي الصلح يَخْطب بلكنة تركيّة يحبّها النوّاب ويتفكّهون بها، لاسيّما حين يَحْضر وهو شبه سكران. ولا زلت أذكر أنّه خطب ذات يوم في المجلس، وهو في تلك الحالة، فأراد أن يستشهد بما ظنّه حديثًا نبويًا، فقال:

- قال محمّد أفندي ﴿وخلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾...

وهنا قاطعه المرحوم النائب حبيب أبو شهلا، الذي كان يَحْفظ القرآن الكريم، فقال:

- بل هذه، يا سامي بك، آية كريمة قالها الله باشا!

فانفجر مجلسُ النوّاب بالضحك، وتلعثم سامي بك، ففضّل إنهاء خطابه وجلس يدمدم بكلام تركيّ غير مفهوم.

ويُروى أنّ سامي بك عاد ذات ليلة إلى منزله وهو ثَمِلٌ، برفقة أحد حرّاسه، فعجز عن إدخال المفتاح في قفل المنزل، وحين حاول مرافقُه أن يساعده، رفض قائلاً:

ـ لا، لا... أنا أفتح الباب، بس أنتَ هدّي لي البناية شويّة!

وفي مكتب **الصيّاد**، تعرّفت إلى عدد من الكتّاب والأدباء الذين كانوا يتعاونون مع صاحب المجلّة، وأجد منهم التشجيع والرضى. وكان فيهم خليل تقي الدّين وتوفيق يوسف عوّاد وعبد السلام العجيلي وشكيب الجابري وسواهم ممّن أسهموا بعد ذلك في **الآداب**.

ولا شكّ في أنّي أَفدت من جوّ **الصيّاد** الذي كان حافلاً بالمعارك السياسيّة والنقديّة. فتعمّق لديّ حسّ المناقشة، وربّما المماحكة، ممّا عرفه القرّاء في كتاباتي التي نُشرتْ في **الأديب** البيروتيّة و**الصباح** السوريّة و**بيروت ـ المساء** التي شاركتُ في تحرير صفحاتها الأدبيّة منذ إنشائها.

وكان الأستاذ عبد الغني العطري رئيس تحرير مجلّة **الصباح** الدمشقيَّة معجبًا بكتاباتي إلى حدّ أنّه لم يتردّد حين أرسلتُ له ما كنتُ أظنّ أنّه قصيدة، فنشرها في الصفحة الأولى مرحّبًا بي كشاعر، كما قال. ولكنّ بعض الأدباء كتبوا يهاجمون القصيدة ويقولون إنّها ليست من الشعر في شيء، فعدلتُ عن نظم الشعر، وتبتُ منه توبةً نصوحًا.

وظلّت علاقتي بـ **الصيّاد** قائمة حين سافرتُ إلى فرنسا لإعداد الدكتوراه، وبعد أن عُدت إلى بيروت. غير أنّني لم أعمل في تحريرها إلاّ بضعة أشهر، لاضطراري إلى التدريس في الجامعة اللبنانيّة وكلّيَّة المقاصد الإسلاميَّة، ردًّا للدَّيْن الذي كان عليّ لوزارة التربية وجمعيّة المقاصد، الأمر الذي حملني على

الاعتذار لسعيد فريحة عن عدم تمكّني من مواصلة التحرير في **الصيّاد**.

كان سعيد فريحة، رحمه الله، صحفيًّا عصاميًّا، وقد مهّد العمل في **الصيّاد** الطريق أمامي إلى الصحافة الأدبيّة التي يسّرتْ لي أن أصدر **الآداب** عام ١٩٥٣.

«عيناب» وأهل جدّتي . . .

أحتفظ من «عيناب» بذكريات ترتبط بفترة حلوة من طفولتنا.

كانت عيناب مصيفًا جميلاً من مصايف منطقة الشّوف، تقع بين مصيف «سوق الغرب» الشهير، وقرية عبيّه، في مواجهة شاطئ المتوسّط، وتَبْعد زهاء نصف ساعة بالسيّارة عن العاصمة بيروت، وتقع على سفح جبلٍ معتدلِ المناخ.

وكنّا نحبّ عيناب لأنّها مصيف عائلاتنا، نقصدها كلّ صيف هربًا من حرّ بيروت وانتجاعًا للراحة والهدوء، يَصْعد إليها كلّ يوم رجالُ عائلات غندور والشيخ وفتح الله وإدريس. وكانت عائلتنا تنزل في دار صغيرة تخصّ جدّتي لأمّي أسماء، التي كانت تملك دارًا كبيرة نسمّيها «القصر» تتألّف من طابقين في كلّ منهما عدّةُ غرف فسيحة ينزل فيها أخوالي وعائلاتهم.

* * *

ولا بدّ من الحديث هنا عن جدّتي أسماء غندور، زوجةِ عمّي مصباح إدريس.

كانت سيّدة جليلة، طاغية الشخصيّة، يحترمها الجميعُ مع

تهيّب. وكانت أمّي سهيلة شديدة الحبّ لها لما كانت تجد عندها من عطف وحنان، ولاسيّما أنّها كانت ابنتها الوحيدة من زواجٍ أوّل بين أربعة أولاد هم أخوالي من الزواج الثاني الدكتور حسن ووفيق وشفيق وأمين الذين كنّا نشعر بأنّهم موضع تمييز وحظوة أكبر لدى جدّتي أسماء وسائر الأقرباء.

ولكنّ أُسرتنا كانت تحبّ جدّتي أسماء حبًّا كبيرًا لما كانت تُغْدقه علينا من هدايا وحلويات حين تأخذنا أُمّنا لزيارتها. وأذكر أنّنا كنّا ننتظر بفارغ الصبر حلولَ عيدَي الفطر والأضحى لنتسلّم منها «العيديّة.» فكانت تحرص على استدعاء كلّ واحد منّا بدوره إلى غرفتها لتعطيه كيسًا مليئًا بالحلويات من الشوكولا والملبّس والدروپس، إلى جانب مبلغٍ من المال عبارة عن خمسين ليرة لبنانيَّة تطويها بعناية وتدسّها في يد كلّ منّا وهي تقول: «بوسوا إيدي» فنبوسها بحماس قبل أن نستعجل للخروج من غرفتها لننصرف إلى فتح الأكياس واستخراجِ ما فيها.

وكنّا نعرف أنّ هذا الكرم هو الذي دفعها لأن تقدِّم لنا الدّار الصغيرة التي تَمْلكها في عيناب لنشارك أُسرتَها الاستمتاعَ بالصيفيّة.

وأنا أحتفظ بذكرى حَدَثٍ شهدتُه في منزلهم ذات يوم، إذ كنّا نزورهم فسمعتُها توبّخ خالي وفيق بشدّة وهي تقول له: «اِخرس، ولا تنس أنّي أطلعتك من طيزي،» فينهزم خالي ويخرج من البيت. ففهمتُ لماذا يتهيّبها الجميع.

***

ولكنْ يبدو أنّها كانت تكنّ حبًا خاصًا لخالي البكر الدكتور حسن.

والحقّ أنّ الدكتور حسن كان مفخرة لآل إدريس، لأنّه كان أشهر طبيب أطفال في لبنان قبل وفاته بجلطة في الدماغ. فإلى جانب ما كان يتمتّع به من كفاءة وشهرة في بيروت، كان كثيرٌ من الأثرياء العرب يقصدونه لمعالجة أولادهم، حتّى إنّ بعض أمراء الخليج كانوا يرسلون إليه طائرةً خاصّة لزيارتهم في بلادهم إذا احتاجوا إلى مشورة طبّيّة عاجلة. ولكنّه كان يعتذر عن تلبية طلب الأغنياء والموسرين إذا كان يعالج طفلاً آخر ولو كان من الفقراء. وُيروى أنّ ملكًا من الملوك قد طلبه يومًا لمعالجة أحد أبنائه وأَعْلن أنّه سيرسل له طائرته الخاصّة، فأجابه الدكتور حسن بأنّه لن يستطيع السفر قبل اليوم التالي لأنّ طفلاً من أولاد الفقراء كان في وضع صحّيّ خطير لا يَسْمح له بتركه. وحاول الملك عبثًا أن يغريه، فَأجابه الدكتور حسن: أنّ «الطفل الفقير الذي أُشرف عليه لا يقلّ أهمّيَّةً عندي من ولدك يا جلالة الملك، لأنّي أعتبره مثل ابني ولن أستطيع تلبيةَ طلبكَ قبل أن أطمئنّ على أنّه اجتاز مرحلة الخطر.»

وقد أحببتُ شخصيًا خالي الدكتور حسن حين أخذ يعالج ابنتي رنا من مرض الروماتيزم. فكنتُ أراه يحنو عليها كأنّها ابنته ويحدّثها وهو يناديها «يا حبيبتي» حتّى أنقذها وقال لي بلا تمنين «الله لَطَف بها لأنّنا أدركناها قبل أن يصاب قلبها.»

ولا أزال حتّى اليوم أَسْمع عن مآثر الدكتور حسن إدريس

الذي أنقذ حياة العديد من الأطفال، وأتّخذه قدوةً ونموذجًا في الجدِّيَّة والطموح.

وعلمنا فيما بعد أنّه كان قد أنهى تخصُّصَه في طبِّ الأطفال بالجامعة الأميركيَّة في بيروت سنة ١٩٣٩، واستكمل علومه بدوراتِ تخصّصٍ في الولايات المتحدة، وشارك في مؤتمرات عالميَّة بطبِّ الأطفال، ومارس التدريس في الجامعة الأمريكيَّة، وانتُخب عام ١٩٧١ عضوًا في اللّجنة التنفيذيَّة للجمعيّة العالميَّة لطبِّ الأطفال في مؤتمر ڤيينا.

وقد تزوّج الخال الدكتور حسن من ليلى الداعوق التي تولّت شؤونه الماليّة بكفاءة وأشرفتْ على جميع مشاريعه، فأتاحت له أن يجوّد مهنته وينصرفَ انصرافًا كلِّيًّا إليها.

وشاع فيما بعد أنّ الدكتور حسن إدريس الذي كان نموذجًا للعطف والحنان مع الأطفال كان أقرب إلى القسوة والخشونة مع الأمّهات، ولاسيّما اللّواتي كان يرى فيهنّ أيَّ إهمال لصحّة أولادهنّ، فلا يتورّع عن توبيخهنّ لكلّ تقصير ويُنْذرهنّ بأنّه سيمتنع عن معالجة أطفالهنّ المرضى إذا ظللن يُهْملنهم أو لا يتقيّدن بتعليماته. والعجيب أنّ جميع الأمّهات كنّ يتقبّلن التوبيخ لأنّه في اعتقادهنّ صادرٌ عن غيرة وحرص شديدين على سلامة الأولاد.

وتُروى بعضُ الحكايات التي وقعتْ مع الدكتور حسن. فقد وَصَفَ يومًا لإحدى الأمّهات «تحاميل» لخفض حرارة ابنتها المرتفعة، ولكنّها عادت إلى عيادة الدكتور حسن لتقول له إنّ

حرارة ابنتها ظلّت مرتفعة. فاستغرب ذلك بدعوى أنّ «التحاميل» من شأنها أن تخفّض الحرارة. فقالت له:

- مع أنّي «بلّعتها» كلّ التحاميل يا دكتور!

فقال لها: التحاميل لا تبلّع يا حمارة، بل تُدسّ في الطيز!

وطردها الدكتور حسن ليعود فيعالج ابنتَها بنفسه!

وروى لي الصديق نزار قبّاني أنّه اصطحب يومًا ابنه إلى عيادة الدكتور حسن. ويبدو أنّه لم يلقَ الترحيبَ الذي كان ينتظره، وعبّر للطبيب عن استيائه من هذا الاستقبال الفاتر. ويبدو أنّ نزار حاول أن يتفلسف على خالي، فقال له الدكتور حسن:

- أنت شاعر كبير عند الأدباء مثل ابن أختي سهيل، ولكنّك حين تدخل إلى العيادة هنا، فيجب أن تنسى ذلك، لأنّ الشغل هنا هو شغلي أنا ولا مؤاخذة!

قال لي نزار قبّاني:

- منذ ذلك اليوم، نفرتُ من الذهاب لاستشارة خالك، وأصبحتْ بلقيس [زوجته رحمها الله] تهتمّ باصطحاب الأولاد وحدها.

وقد خلّف غياب حسن إدريس لوعة كبيرة وخاصّة في نفوس الأمّهات اللّواتي سبق أن عالج أبناءهنّ. وجاء في شهادة شفيق الوزّان رئيس الوزارة اللبنانيّة قوله:

«يوم المأتم، رأيتُ أمًّا من أكرم العائلات تركع على ركبتيها تبكي وتبكي طبيبَ طفلها وكأنّها فقدتْ يَد السحر. إنّها واحدة من أمّهات آمنّ بالدكتور حسن في لبنان وخارج لبنان يعبّرن ببساطة

كلّيّة عن إيمانهنّ بجملة مختصرة: علاجه كمسحة الرّسول.»[1]

وقد رُزق الدكتور حسن ثلاثة أولاد: زياد وعماد وشيرين. وقد برع كبيرُهم زياد في طبّ الأطفال ـ على خطى أبيه ـ وسافر إلى واشنطن حيث يمارس المهنة بكفاءة كبيرة.

* * *

أمّا خالي الثاني وفيق إدريس فكان ـ على أمّيّته واحدًا من عباقرة التجارة في لبنان. فقد أسّس محلاّت إدريس لبيع الأجبان والسّلع الشبيهة الأخرى، وفتح مقهى هو أوّل مقهى تعرفه العاصمة اللبنانيّة «مقهى الأوتوماتيك.» ورزق بخمسة أولاد ذكور هم: مصباح ورباح ونبيل وسمير وعاطف اشتركوا في إدارة محلاّته بنجاح كبير كأنّما أورثهم والدُهم الحسَّ التجاريَّ الرّفيع. وقد التحق بمحلاّت إدريس أَخَوَانِ لي أسّسا فيما بعد محلاًّ تجاريًّا مشابهًا فلحقا بمهنة التجارة، بينما كنت أنا الشاذَّ الوحيد مع خالي الدكتور حسن اللذين لم يمتهنا العمل التجاريّ.

وكنت أنا وأخوتي نحبّ أخوالي ونزورهم مع أمّنا سهيلة في المناسبات.

وقد تزوّج خالي وفيق من عواطف سنّو التي كانت تهتمّ بشؤون خالي التجاريّة، كما كانت ليلى الدّاعوق تهتم بشؤون خالي حسن. وقد لاحظتُ اهتمام امرأة الخال عواطف بالأدب

(١) من كرّاس إحياء ذكرى المرحوم البروفسور الدكتور حسن إدريس ١٩١٤ – ١٩٧٩.

والفنّ، وقد كتبتُ فيما بعد بعضَ الآثار الأدبيَّة ورسمتُ عددًا من اللّوحات المتميّزة. وكنّا نلاحظ أنّ خالي وفيق يحبّها بشغف، فأصبحنا نحن أولادَ أخته نحبّها مثله ونتندّر أحيانًا ببعض مظاهر هذا الحبّ! كان خالي وفيق مولعًا بالغناء، وقد اقتنى حاكيًا (فونوغرافًا) كان يزوّده بكثير من أسطوانات عبد الوهاب وأمّ كلثوم وأسمهان. وقد استمعنا ذات يوم بإعجاب كبير إلى أغنية للشيخ أمين حسنين، هي أغنية «مررت بالبحر.» وحين سمعناها للمرَّة الأولى توقّفنا عند الشّطر الثاني من القصيدة وهو يقول: «مررت بالبحر فاهتاجت لرؤيته عواطفي» وتغامزنا أنا وأخوتي على كلمة «عواطفي» وفهمنا أنّ خالي إنّما اقتنى هذه الأغنية لورود اسم امرأته في شطرها الثاني! على أنّي حفظتُ معظم أبيات هذه الأغنية، معجبًا بالمنحى القصصيّ فيها:

فقلتُ للبحر أَرْجعْ من ذَهَبْتَ بها
وصيّرَتْني أسيرَ الهمِّ والضّجرِ
فلم يجبْني بغيرِ الموجِ ملتطمًا
....
سارتْ وسارَ فؤادي في حراستها
وَعُدْتُ أشكو الأسى حتّى إلى الحجرِ
أمرُّ بالنّاس لا ألوي على أحدٍ
ولا أرى غيرَها حشدًا من الصورِ

كان الخال وفيق شديد الابتهاج بهذه الأغنية، يتمايل طربًا مع أنغامها ويبتسم لزوجته حين يمرّ ذكرها «عواطفي» ويردّد: «الله! الله!»

وأمّا خالي الثالث شفيق فكان نموذجًا للطيبة والأخلاق الرضيّة. وقد تزوّج بأميمة غندور شقيقة هاني الذي رويتُ حكايته في قصّتي «تذكار ثورة» المنشورة في مجموعتي القصصيّة الأولى **أشواق**.

بقي الخال الرّابع أمين الذي كان يَكْبرني ببضعة أشهر فقط. وكان رفيقًا وصديقًا أكثر ممّا كان خالاً لي. وكان سمينًا أكولاً لا يُرى إلاّ وهو يمضغ شيئًا من طعام أو حلوى. وكان لجدّتي أمّه أسماء صندوقٌ خشبيّ تملأه بالحلوى، فكان أمين ينتظر غيابها وينزع مسامير الغطاء الخارجيّ ليسرق الحلوى من الصندوق المقفل ثمّ يعيد الغطاء ويدقّ مساميره. وتروي امرأة الخال عواطف أنّني خرجتُ معه ذات يوم في نزهة بين الأشجار، فاقترح الخال أمين أن نَسْرق جوزًا من شجرة جوز كبيرة كانت تظلّل «عين كفرة»، فتسلّق أمين الشجرة وأخذ يقطف حبّات الجوز ويرمي بها إلى أسفل الشجرة حيث كنت أنتظره على سبيل الحراسة. وحين انتهى من عمله هبط من الشجرة فأخذنا نجمع حبّات الجوز ثمّ اخترتُ منها عددًا من الجوز الصغير، واحتفظتُ لنفسي بعدد أكبر من الجوز الكبير. وحين احتجّ أمين على هذه القسمة الظالمة رددتُ عليه مدّعيًا أنّي كنتُ أواجه من الأخطار، أنا الواقفَ على الحراسة بانتظاره، أضعافَ ما كان يواجهه وهو متسلّقٌ الشجرةَ. تروي عواطف هذه الحكاية للتدليل على حبّي للمماحكة وميلي أحيانًا إلى قلب الحقائق.

وما لبثتْ علاقتي بالخال أمين أن انقطعتْ حين انضمّ إلى

أخوته في إدارة المتجر.

* * *

غير أنّني أحتفظ من ذكريات عيناب بحادثة ترجع إلى فترة وصول جنود الحلفاء إلى لبنان حين كانت تحتلّه «فرنسا الحرّة» أوائل الأربعينيّات. فقد نزلوا على الشواطئ اللبنانيّة وأخذوا يحتلّون المدن والقرى الساحليَّة. ذات يوم، سمعنا أصوات انفجار قنابل كانت سفنُ الحلفاء الحربيَّة توجّهها إلى عيناب من البحر باتّجاه قصر آل أبو حسن الذي قيل إنّ منظارًا طويلاً كان منصوبًا فيه، فظنّه الحلفاء منظارًا حربيًّا وأخذوا يقصفون القصر الذي كانت تحيط به معظمُ منازل الأقرباء والمصطافين. وحين خرج الأولاد ليتفرّجوا على آثار القصف الذي ظنّوا أنّه انتهى، عاد القصف ثانيةً حين وصلنا إلى بيت أبو حسن. وروي أنّ سهيلة، أمّي، خرجتْ كالمجنونة وقد أخذها الرّعب وهي تصيح: «الأولاد، يا شحّاري، يا خربان دياري، راح الأولاد.» وحين رأتنا عائدين وقد ملأنا الخوفُ من عودة القصف أخذتْ تبكي وتضمّ كلّ واحد منّا حتّى تكاد تخنقه.

* * *

ظلّت عيناب محفورة في ذاكرتي، ولاسيّما أنّي عرفتُ فيها فتاة جميلة تدعى نهاد.

كان ثمّة زقاق يؤدي إلى الدار الصغيرة، غير بعيد عن «قصر» جدّتي أسماء. وكان هذا الزقاق يحاذي منزلاً فخمًا يملكه آل شاكر الذين اشتُهِروا بأنّهم يديرون عدّة صيدليّات. وكان بإمكان

مَنْ يمرّ في الزقاق المحاذي لمنزلهم أن يرى داخل الغرف وساكنيها. وحين أقصد دارَنا أو أغادرها كنتُ أشاهد من نافذة إحدى الغرف تلك الفتاةَ الجميلةَ التي لم ألبث طويلاً حتّى رحتُ أتقصّد المرور بمحاذاة دارهم كي أرى نهاد الجميلة ذات الصدر العامر والوجنتين المشربتين بالحمرة والبسمة الحلوة التي كانت تعلو ثغرها حين تراني ونتبادل السّلام بهزّة من الرّأس.

كتبتُ ذاتَ يوم ورقة صغيرة دسستُها بين صفحات كتاب فرنسيّ يضمّ قصصًا قصيرة لغي دوموپاسان كنتُ أتمرّن على ترجمة بعضها إلى العربيّة، ووضعتُ الكتاب على نافذة غرفة نهاد. وكنتُ أقترح في الورقة أن ألتقي بالفتاة في اليوم التالي على طريق «عين كفرة.»

كانت عين كفرة نبعًا شهيرًا يقع أسفل سفح جبل عيناب ويقصده النّاس ليملأوا جرارهم من مائه البارد اللّذيذ. وفي اليوم التالي التقيت بنهاد في منتصف الطريق إلى العين وكانت برفقتها خادمةٌ لهم تحمل جرّة. وقد توقّفتْ نهاد حين رأتني متّجهًا إليها ووقفتْ تسلّم عليّ ذاكرةً اسمي، وعرّفتني على اسمها، فقلتُ لها إنّي معجب بها وبجمالها وباسمها خاصّة وبمعنى هذا الاسم. فرأيتُ وجهها يتضرّج بتلك الحمرة الفاتنة، ويدها ترتفع إلى صدرها بحركة تلقائيّة طار لها صوابي. فسارعتُ أتناول تلك اليد وأقلبها لأقبّل تلك الراحة التي مسّدتْ ذلك النهد برفق وهدوء، متمنّيًا لو كانت يدي. وسارعتْ نهاد تلحق بخادمتها التي كانت تحمل الجرّة ملأى بماء عين كفرة.

أنا والمعدّاوي

كان الناقد المصريّ الكبير أنور المعدّاوي أحد كبار أصدقائي. وتعود صداقتنا إلى فترة مبكرة من الأربعينيّات، إذ كان من أوائل مَنْ تنبّهوا إلى رحلتي في ميدان الأدب، واهتمّ بها وحاول جهدَه أن يساعدني وأن يأخذ بيدي في طريق الكتابة الأدبيّة. وربّما كان أنور المعدّاوي أوّل مَنْ كتب عن مجموعتي القصصيَّة الأولى **أشواق**، التي صدرتْ عام ١٩٤٨، دراسةً عرّفني بها إلى القرّاء العرب، ولاسيّما المصريّون. وكتب كذلك عن مجموعتي الثانية **نيران وثلوج** (١٩٤٩). ثمّ قدّم لي مساعدة ثمينة جدًّا حين سافرتُ إلى باريس لإعداد شهادة الدكتوراه في الأدب، فزوّدني بكلّ ما كنتُ أطلبه منه من مراجع وكتب، وأعانني بآرائه ونصائحه في رسالة الدكتوراه التي عالجتُ فيها موضوع **الرواية العربيَّة الحديثة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠ والتأثيرات الأجنبيَّة فيها**. وأَشهد الآن أنّه لو لم يستجب أنور المعدّاوي لكلّ ما كنتُ أطلبه منه من كتب ومراجع لكنتُ عجزتُ عن إنجاز هذه الرّسالة التي استغرق إعدادُها ثلاثة أعوام (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢). ولم أحتفظ مع الأسف بنسخ من رسائلي إليه من

باريس، ولكنّ الباحث المصريّ أحمد محمّد عطيّة نشر هذه الرّسائل التي أطلعه عليها المعدّاوي في كتابه **أنور المعدّاوي: عصره الأدبيّ وأسرار مأساته**.(١) وقد أفدتُ كثيرًا من هذه الرّسائل وأعانتني على تلخيص هذه العلاقة في هذه المذكّرات، وأضفتُ إليها بعض ما أَحْتفظ به من رسائل أنور المعدّاوي إليّ. وأودّ أن أراجع في هذا الفصل تفاصيل هذه العلاقة التي كان لها تأثير كبير في حياتي الأدبيّة.

كان أنور المعدّاوي أوّل كاتب مصريّ يقدّمني إلى القرّاء العرب كما ذكرتُ. وكان أوَّلَ مَنْ كتب عن مجموعتي الأولى **أشواق** في مجلّة **العالم العربي** التي كان يقوم على تحريرها الناقد المعروف سيّد قطب. وقد سجّل المعدّاوي عددًا من المآخذ على قصص هذه المجموعة أقررتُه على كثير منها ولكنّي رأيته «ظالمًا» في ما أخذه على قصّتيّ «أشواق» و«تذكار ثورة.»(٢) ولقد أثنيتُ في رسالة أخرى له(٣) على تجاوزه «نطاقَ المجاملات وعبارات الصداقة إلى أبحاث من الثقافة لها شأنُها.» ولكنّي سجّلتُ في هذه الرّسالة عتابي على الأدباء المصريّين «لأنّنا نحن اللبنانيين والسوريّين نتهافت على نتاجهم لنقرأه ونتذوّقه وننقده، بينما هم يُهْملون نتاجنا، على الرّغم من أنّه يفوق أحيانًا نتاجَهم عمقًا وفنًّا وجمالاً.» وتطرّقتُ في هذه

(١) منشورات دار المرّيخ، الرياض، بلا تاريخ.

(٢) رسالتي إلى المعدّاوي بتاريخ ١٤/١٢/١٩٤٧.

(٣) بتاريخ ١٥/١/١٩٤٨.

الرّسالة إلى إيراد عبارة للمعدّاوي يحسدني فيها على «الصدر الرّحب» لتقبّلي نقدَ الكاتب اللّبناني سعيد تقي الدِّين لهذه المجموعة القصصيَّة نفسها، فقلتُ إنَّ هذا «طبيعيّ من كاتب يشتدّ في نقده وصراحته؛ فأنا هنا أعامل نفسي كما أعامل سواي ممّن أنقدهم، وأُدْرِكُ أنّ من واجبي أن أتقبّل النقد الشديد كما أسوقه... ويسرّني أن أجد في مصر ناقدًا يؤمن بما أؤمن به، هو أنت يا أنور. وأحسب أنّ صراحتك ستجعل لك شأنًا مرموقًا في دنيا النقد.»

وحين سألني هل أوافق على أن يقسو بالنّقد على سعيد تقي الدِّين لأنّه «من حقّ أصدقائي عليّ أن أنتقم لهم» أجبتُه أنّ عليه أن يتناسى هذه المجاملة ويكتب ما يوحيه إليه ضميره «لاسيّما وأنت اعتدت أن تقسو على الناضجين كما قلت.»

وفي رسالة تالية منّي إلى المعدّاوي(١) أعبّر للأديب المصريّ الصديق عن بعض همومي ومشكلاتي الخاصّة، وعن معاناتي الأسريّة والمعيشيَّة والمهنيَّة وتمزّقي بين ضرورة العمل الصحفيّ الشاقّ لإعالة أسرتي الفقيرة وبين كراهيتي لهذا العمل الذي يعوقني عن تحقيق طموحاتي الأدبيّة. وفي الرّسالة نفسها طلبتُ منه أن يستعدّ لاستقبال الكاتب اللبنانيّ سعيد تقي الدِّين الذي سيعود إلى بيروت من الفيليبّين عن طريق القاهرة وأن يقدّم له نقده **الممتاز** لمسرحيّته **حفنة ريح**.

---

(١) بتاريخ ٢٠/٢/٤٨. راجع كتاب أحمد محمّد عطيّة عن أنور المعدّاوي ص ١٥٩.

وفي رسالة تالية تحدّثتُ عن دور مجلّة **الرّسالة** للزيّات وعن تأثيرها العظيم في الحياة الثقافيّة المصريّة وعلى مستوى الوطن العربيّ.

كنت قد قابلت المعدّاوي في القاهرة في آذار ١٩٤٨، عندما قصدتها للقاء سعيد تقيّ الدِّين.

ومن الرّسائل التي بعثتُ بها إلى المعدّاوي الرّسالة المؤرّخة في ١٧/ ٥/ ٤٨ في أعقاب دخول الجيوش العربيَّة أرض فلسطين لتحريرها من العصابات الصهيونيَّة التي كانت قد أعلنتْ قيام دولة إسرائيل إثر صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين ورفضِ العرب لهذا القرار. وتقوم أهمِّيَّة هذه الرّسالة على كونها تحمل بشكل واضح الهمّ القوميّ المرتبط بقضيّة فلسطين الذي كان في أصل تبنّيَّ للالتزام في الأدب وتوظيفه للدفاع عن القضايا القوميَّة العربيَّة برمّتها.

وفي هذه الرّسالة أستوضح المعدّاوي إذا كان قد قرأ نقدي في مجلّة **الأديب** لمسرحيَّة سعيد تقي الدِّين **حفنة ريح**.

وفي رسالة تالية بتاريخ ٨/ ٥/ ٤٩ أعبّر لأنور المعدّاوي عمّا أجد في مقالاته في **الرّسالة** من مزايا كثيرة تجعله أديبًا كبيرًا يرمقه القرّاء والأدباء بعين الاعتبار، وأعلن أنّي أوافق على نصيحته بأن أعمل على إعداد الدكتوراه في الأدب، وأنّي عزمتُ على السفر إلى فرنسا في أواخر هذا العام للالتحاق بجامعة السوربون «تخلّصًا من هذا الجوّ الضيّق الذي أعيش فيه، جوّ التحرير والملازمة والرّوتين الذي يَقْتل كلَّ طموح ويَحُول بيني وبين

رغبتي الملحّة في المطالعة والدراسة وتوسيع أفق الحياة.» وأبلغته في الرّسالة عن قرب صدور مجموعتي القصصيّة الثالثة **كلّهنّ نساء**، «وأعتقد أنّك ستلمس فيها تطوّرًا في كتابة القصّة، وفيها مقدّمة جميلة لسعيد تقي الدِّين.» كما أُثني على «تعقيبات» المعدّاوي في **الرّسالة**، ومنها تشبيهه المفكّر المصريّ العلمانيّ سلامة موسى بالمنولوجست محمود شكوكو، وعلى إعجابه الشديد بسيّد قطب وبفنّه ونقده. وفي رسالتي إلى أنور بتاريخ ١٢ أيّار ١٩٤٩ أعاتبه على ما يأخذه عليّ من تصدير **كلّهنّ نساء** بمقدّمة سعيد تقيّ الدِّين ومن تعليله لهذا الأمر بأنّ «كتابة المقدّمات أصبحتْ تدلّ على أنّ المؤلّف لا يستطيع أن يقف وحده على قدميه دون أن يستند إلى ذراعين قويّتين،» فأقول معقّبًا «أنتَ أدرى النّاس بأنّي لستُ بحاجة إلى أن يقدّمني كاتب قدّمتُه أنا للجمهور.» بالرّغم من أنّ تلك المقدّمة «كانت دردشة» على ما يقول المعدّاوي، فإنّ فيها مقاطع ولمعات رائعة «وهذه على كلّ حال ميزة سعيد تقيّ الدِّين في الكتابة، يجمع بين الذروة والسّفح.»

أمّا التعليق الإيجابيّ الذي أورده المعدّاوي على مقالتي «مذكّرات شيخ» بقوله «أؤكّد لك أنّكَ لو كتبتَ القصّة بهذا الأسلوب الذي يستمدّ حرارتَه وصدقَه من واقع الحياة لكان لك شأن آخر،» فقد تساءلتُ قائلاً: «أتعتقد أنّ بوسعي أن أكتب قصّة إذا لم يكن لها أصلٌ في الواقع أو ظلٌّ في الحقيقة؟ إنّني أؤكّد لك يا أنور أنّي حتّى اليوم لم أكتب قصّة واحدة اختلقتُها برمّتها من

مخيّلتي، وأنّ هيكل قصّة واحدة لم يقم في مخيّلتي إلاّ على أساس من حادثة واقعة أو شعور حاصل، ثمّ تأتي بعد ذلك عدّةُ القصّاص تُضْفي عليها من الحوادث ما يلائمها أو يُستنتج منها. ثمّ ألا تعتقد أنّ للقصّة أسلوبًا لا يمكن أن يتلاءم مع القصّة الفنيَّة، وإنْ كان اللّونان جميعًا ـ القصّة والمذكّرات ـ يستمدّان حرارتهما من واقع الحياة؟» وفي هذه الرّسالة نفسها شكرتُ للمعدّاوي رأيه في **كلّهنّ نساء** بأنّها «عمل فنّيّ جدير بالتهنئة.» وقد نَشر هذا الكلام في مجلّة **الرّسالة**.

وفي رسالتي المؤرّخة في ٣١ تمّوز ١٩٤٩ حديثٌ عن أوّل قصّة لي نُشرتْ في مجلّة **الرّسالة** المصريّة، وحديثٌ عن روايتي الأولى **سراب** التي نُشِرَتْ مسلسلةً في أسبوعيَّة **بيروت ـ المساء** وأرسلتها إلى المعدّاوي طالبًا رأيه فيها، وأُخبره فيها عن استعدادي للسفر إلى باريس في أوّل أكتوبر لإعداد رسالة الدكتوراه واستكمال تكويني الثقافيّ وتحقيق طموحاتي. وأثنيتُ في هذه الرّسالة على الرّأي الإيجابيّ الذي كتبه المعدّاوي في نقد روايتي القصيرة «سراب» وهو «الأمر الذي عوّضني عن هجوم بعض الكتّاب اللّبنانيّين الحسّاد الذين أجمعوا على مهاجمتي، ولكنّك أنت قوّيت عزمي وشدَدت من ثقتي بنفسي.» وتحدّثتُ في هذه الرّسالة أيضًا عن المعركة الأدبيّة التي خضتها مع عبد الله المشنوق صاحب **بيروت ـ المساء** الذي شاء أن ينهي المعركة بهدنة. وكانت القضيّة حول الأسلوب، «فالفكرة في نظره «هي الجوهر، والقالب هو العَرَض.» أمّا أنا فالفكرة والقالب هما

عندي جوهر، وهما ضروريّان لكلّ أدب يخلد؛ وهو رأي موافق لرأي الزيّات الذي استشهدتُ في أحد الفصول ببعض أقواله في كتابه الرّائع **دفاع عن البلاغة**.»

وقبيل سفري إلى باريس، ودّعتُ المعدّاوي في رسالة أخيرة من بيروت، أكّدت فيها له أنّي سأكون بحاجة إليه في غربتي.

❊ ❊ ❊

وقد كتبتُ للمعدّاوي ١٥ رسالة من باريس،[١] كانت أولاها بتاريخ ٢٨ أكتوبر ١٩٤٩ في بطاقة عبّرتُ فيها عن انطباعاتي الأولى «وأنا جالس في مقهى على بولڤار سان ميشال حيث أستعرض أجملَ بنات باريس. إنّه يا عزيزي جوّ موحٍ لذيذ آمل أن أفيد منه كثيرًا للقصّة وللحياة. وأرجو أن أتابع مقالاتك في **الرّسالة**، على الرّغم من أنّي في وسط عاصمة النّور... الأحمر.» ولكنّ رسالتي الثانية لأنور من باريس تحمل لهجة مغايرة: «الحاصل أنّ باريس لم تَخْلبني ولم تسحرني بأنوارها... حتّى الآن، بل أنا لا زلت أستشعر الكآبة والأسى لمفارقتي بلادي التي كنتُ فيها هادئًا مسرورًا تحيطني عنايةُ الجميع، لأرتمي هنا في جوّ ليس لي فيه أنيس. على أنّي لست باليائس لأنّي طموح، والطموح هو الذي جعلني أركب غارب هذه المشاقّ الكثيرة. ولعلّني إذ أنغمر في الجوّ الباريسيّ بعد حين، وأتعرّف إلى معالمها وأستغرق في المطالعة والتحصيل، يزول عنّي هذا الانقباض، وهذا ما أرجّحه.»

(١) أورد نصوصها أحمد محمّد عطيّة في كتابه الهامّ المشار إليه آنفًا.

وأتوجّه بعد ذلك إلى المعدّاوي قائلاً: «إنّ الحياة هنا، يا عزيزي أنور، تتّخذ طابعًا من الحرّيّة لا مثيل له، وهذا ما نحن بأشدّ الحاجة إليه في الشرق. فما دامت الحرّيّة مخنوقة في بلادنا، فيجب ألاّ نطمع بالتقدّم. إنّ الإنسان هنا يستطيع أن يقول ما يشاء، ويعمل ما يشاء، داخل حدود القانون طبعًا، فيَشعر بإنسانيّته وبكرامته، أجلى شعور وأوضحه. أمّا نحن، فإنّ حرّيّة القول عندنا مخنوقة، وحرّيّةَ التفكير المجرّد مذبوحة، وحرّيّة العيش خارج حدود التقاليد البالية الموروثة معدومة. ويجب أن نتعلّم من الغرب هذا الحبّ للحرّيّة، وأنّه هو وحده الذي يبلغنا الحرّيّةَ المنشودةَ المطلقة.»

وتطرّقتُ بعد ذلك إلى المعركة التي قامت بين المعدّاوي وأمين يوسف غراب في مجلّة **الأديب** اللبنانيّة حول قصّة أنور «ڤيوليت» في مجلّة **الرّسالة**. وذكرتُ أنّي آخذ على هذه المجلّة أنّها لم تنشر كلمته ولم تشر إليها، «وقد كان عليكَ أن تلحّ على الزيّات في نشرها، قبل أن تردّ عليها بما تشاء.» وأضفت: «هكذا تَحفظ لحرّيّة القول مكانتَها.» وصارحتُ المعدّاوي بأنّ كلمته خرجتْ من المناقشة إلى ما يشبه المهاترة، ونأيتُ بنفسي عن المجاملة حين أضفتُ منتقدًا: «إنّ عنفك أحيانًا ينسيك أصول النقاش، فلم يكن من المعقول أن تصف أمين يوسف غراب الذي له شأن معترف به في القصّة المصريّة بـ 'ذبابة' لمجرّد ادّعائه أنّكَ اقتبستَ قصّتَكَ من قصّة له سابقة.»

وفي هذا السياق أيضًا تحدّثتُ عن نقد أنور لديوان الشّاعر

نزار قبّاني بعنوان **طفولة نهد** أو «طفولة نهر» على ذمّة منضّد حروف **الرّسالة** ـ وواضح أنّه تشويه مقصود لجأ إليه الأستاذ الزيّات تحرُّجًا من ذكر كلمة «نهد»؛ وهو تزمُّتٌ مزعج دون شك!

ولكنّي في الرّسالة التي تلت بتاريخ ١٤/ ١٢/ ٤٩ عدت فغيّرتُ لهجتي بالنّسبة إلى إقامتي في باريس. وقد بدأتْ تتلوَّن بالعاطفة «فالعاطفة هنا تَشْغل المركز الممتاز من حياة الإنسان ولاسيّما الشرقيّ القادم حديثًا... فأنا أشعر الآن أنّني سوف أصاب بتخمة عاطفيّة بعد أن كنتُ أشكو في بيروت حرمانًا عاطفيًّا شديدًا. فبوسعك هنا أن تجد الفتاة التي تستجيب لمشاعرك حبًّا وإخلاصًا وتفانيًا، ثمّ تُنيلك من متع الدنيا ما أنت بأمسّ الحاجة إليه. إنّهم هنا يقدّرون العاطفة والحبّ في حساب حياتهم، بينما نحن الشرقيين نَجْحد هذه القيمة.»

وصارحتُ المعدّاوي بقولي: «أنا حتّى الآن سعيد في علاقاتي الغراميّة المعتدلة، طبعًا، وأحسّ أنّي سأصيب فائدة عظيمة في تعلّم الحياة والانخراط في مسالكها...»

ولا شكّ في أنّي صَدَرتُ في هذه الآراء والانطباعات عن الجوّ العاطفيّ الذي كنتُ أعيشه في تلك الفترة مع الفتاة الفرنسيّة الأولى التي عَقدتُ معها علاقةً غراميَّةً كاملة بعد أن تعرّفتُ عليها في الفندق الذي نزلتُ فيه بباريس. ووفّرتْ لي هذه العلاقة سعادة كبيرة لم أحسّ بمثلها في بيروت، وبدأتُ أحسّ بأنّ الحاجة الجنسيّة التي كنتُ أشكو فقدَها تَدْخل في طور الاكتفاء والإشباع.

وفي هذه الرّسالة عزّيتُ أنور المعدّاوي بفقد الشاعر الكبير علي محمود طه، كما حدّثته عن عدم رضاي عن قصّة سعيد تقيّ الدِّين «القدم الناطقة» لما فيها من تكلّف وافتعال.

كنت والمعدّاوي نتناول كلّ القضايا الأدبيّة الساخنة يومها عبر الرّسائل، ونتحاور في الأمور الشخصيّة ذاتها. إلاّ أنّني لا أحتفظ سوى بأربع رسائل بَعَثها إليّ في فترات متقطّعة. كانت هذه أولاها.

«أخي العزيز سهيل

أحمد الله على أنْ وَصَلَكَ إقرارُ الأزهر الذي بعثتُ به إليك.. لقد كنتُ أخشى أن يضيع بالطريق كما ضاعت رسالتك من قبل، أمّا ولم يتحقّق ما كنتُ أخشاه فلا أملك إلاّ أن أشكر للبريد الجوّيّ أمانته في هذه المرّة! ولا أجد داعيًا لهذا الشكر الذي بدأتَ به رسالتكَ، لأنّني لم أقم نحوك بجميل يستحقّ شكرَكَ لأخيك. ليس بين الأصدقاء يا عزيزي سهيل شيء يمكن أن يسمّى جميلاً، وليس بينهم ما يستوجب الشكر على عمل تفرضه الصداقةُ ويقرّره الوفاء!

بعد هذا أدعو لك من أعماق نفسي بأن تكلَّل مساعيكَ بالنجاح، حتّى تستطيع أن تطمئنّ إلى مستقبلك في السوربون، وحتّى أستطيع أن أراك عند أوبتك القصيرة لوطنك بغية الحصول على بعض المراجع كما قلت لي. الحقّ يا سهيل أنّني جدّ مشتاق إليك، وأنّني أنتظر أن تبرّ بوعدك لأجتمع بك مرّةً أخرى في رحاب القاهرة، وليس ببعيد إذا تحقّق هذا الأمل الجميل أن أشدّ

الرّحال معك إلى لبنان، لنقضي معًا هذه الفترة التي تودّ أن تقضيها بين أهلك وأحبابك، إذا ما قُدِّر لك أن تنتهي من تقييد اسمك بقسم الدكتوراه بجامعة باريس!

وعلى ذكر باريس أودّ أن أقول لك إنّني تلقّيتُ عددين من **بيروت ـ المساء** الأسبوعيّة، حيث قرأتُ لك في العدد الأوّل مقالاً لطيفًا تحت عنوان «فضوليّات باريسيّة،» وحيث قرأتُ في العدد الثاني قصّتك «Tristesse» التي طلبتَ إليّ أن أوافيك برأيي فيها. إنّ رأيي يا أخي سهيل هو أنّها ليست قصّة بالمعنى المفهوم من القصّة، ولكنّها قطعة مؤثّرة من أدب الوجدان، أو مقالة عاطفيّة تعبّر عن وقدة شعور صادق! ولهذا لم يكن هناك ما يبرّر قول **بيروت ـ المساء** عنها إنّها «قصّة جديدة لسهيل إدريس».. ألستَ توافقني على هذا الرّأي؟! وشبيه بها قصّة سعيد تقي الدِّين «الطابة الخضراء»، إذ لا أستطيع أيضًا أن أعتبرها قصّة. وإذا ضغطتُ على موازيني واعتبرتُها كذلك فستبقى هناك حقيقة، وهي أنّ سعيد تقيّ الدِّين بدأ ينحدر عن مستواه القصصيّ السّابق انحدارًا كبيرًا. ألستَ توافقني أيضًا على هذا الرّأي؟! ولقد اطّلعتُ على رأي الشيخ سعيد في قصيدة «سامبا» وردّ صديقنا نزار قبّاني عليه. وصدّقني أنّني لم أتمالك نفسي من الابتسام! أكاد أجزم بأنّ سعيد تقيّ الدِّين لم يقرأ شيئًا في الشعر العربيّ الحديث، لم يقرأ لعلي محمود طه ولا لإيليّا أبو ماضي ولا لبقيّة شعراء الطليعة، ولو قرأ لما قَطَعَ بأنّ «سامبا» ليس لها مثيل في الشعر العربيّ الحديث. وهذا صديقنا نزار يصدِّق ما قاله عنه

صديقُنا سعيد، فلا يألو جهدًا في رشق «الطابة الخضراء» بإكليل الغار ردًّا للجميل؛ ولا بأس من تقارض الثناء! أُعذرني إذن حين لا أتمالك نفسي من الابتسام، ولعلّك أيضًا قد ابتسمت!

وأحبّ أن أَنهي إليك أنّني توقّفتُ عن المضيّ في كتابة الدراسة المطوّلة عن شعر علي محمود طه في الرّسالة، لقد خطر لي أن أقتصر على اثنيْ عشر مقالاً لتُضمّ المقالاتُ الباقية إليها بين دفّتيْ كتاب، حتّى لا يفقد الكتابُ جدّتَه وأثرَه في نفوس القرّاء إذا ما نُشرتْ فصولُه كلُّها على صفحات الرّسالة. وسأعود إلى كتابة «التعقيبات» في العدد القادم إن شاء الله، ولا مناص كما تعلم من خلق خصوم جدد تدعوني إلى خلقهم كثرةُ التهجّم على عباد الله من الأدباء. إنّ خصومي ينتظرون ظهور كتبي بفارغ الصبر ليردّوا إليّ ما سَبَقَ أن أسديتُ إليهم في ميدان النقد من أيادٍ بيضاء! ولا عليك يا ابن إدريس، فسأعدّ لهم سياطًا تُلْهب ظهورَهم كما تعوّدتَ من أخيك. . . والبركة في طول اللّسان!

أمّا عن كتاب الوعد الحقّ فأبعث به إليكَ في الأيّام القليلة المقبلة، وسأعرض له معقّبًا على صفحات الرّسالة في مجال الردّ على رسالة من أحد القرّاء العراقيين. . . وأمّا عن تهنئتك للأستاذ الزيّات فقد نقلتُها إليه، وهو يبلّغك عاطرَ شكره وخالص تمنّياته.

ماذا بقي لأقوله لك؟ لا شيء إلاّ السؤال الدائم عن الصحّة والمزاج والانسجام. أتعرف ماذا أعني بالانسجام؟ أعني الانسجام المعهود في عالم الحبّ والغرام! إنّ «قلبي» معك يا ابن إدريس، وقد خفق إشفاقًا عليك حين عرضتَ لبنات باريس في مقالك

«فضوليّات باريسيّة»... أولئك البنات القليلات الذوق اللاّتي لا يَنْعم بصحبتهنّ غيرُ الزنوج!! ماذا عليك إذا ما صبغت وجهك بالطلاء الأسود لتصبح معبود الحسان، ما دام الذّوق الباريسيّ «المجليط» قد انحطّ إلى مثل هذا الدّرك من الهوان؟! مسكين يا ابن إدريس ورحمة الله لأيّامك في صحبة بنات لبنان!!

ولك خالص الشوق من أخيك
أنور المعدّاوي
٢١/ ٣/ ١٩٥٠.»

وانقطعتُ طوال سبعة أشهر عن الكتابة للمعدّاوي بسبب تعذّر تسجيلي لرسالة الدكتوراه في السوربون لعدم حصولي مسبّقًا على شهادة الليسانس واضطراري للعودة إلى بيروت في فصل الصَّيف للحصول على شهادتيْن معادلتيْن للّيسانس بتقديم امتحانيْن في الأدب بمعهد الآداب الشرقيَّة، علمًا بأنّي نجحتُ في امتحان الصحافة بالمعهد العالي للصحافة في باريس. وانصرفتُ إلى مطالعة عدد غير قليل من الكتب لكبار الكتّاب الفرنسيين المعاصرين أمثال جيد وسارتر ودو هاميل ومورياك وكامو وكسل ومارسيل إيميه، واهتممتُ اهتمامًا خاصًّا بدراسة القصّة من الزاوية التكنيكيَّة، وهي دراسة ستفيدني كثيرًا في ما أنا مقبل عليه من تعمّق القصّة فهمًا وكتابة. وهذا ما شرحتُه لأنور في أوّل رسالة بعثتُها إليه بعد انقطاعي عن الكتابة: «وقد أفسحتُ من نفسي للحياة أضعافَ ما أفسحتُ للكتابة. ولعلّ في ذلك خيرًا لي، فأنا متّهم بأنّه ينقصني أن أعيش،[1] ولا شكّ في أنّي بدأتُ

(١) ربّما كانت هذه الجملة ردًا غير مباشر على دعوة سعيد تقيّ الدّين لي بأن «اخرجْ إلى الحياة.» وسيأتي ذكرُها في الفصل الخاصّ بسعيد.

أسدّ هذا النقص وأبلو من شؤون الحياة ما أنا بحاجة إليه كإنسان وقصّاص.»

وفي هذه الرّسالة عاتبت المعدّاوي على نشر رسالة لكاتب عراقيّ يُدعى كارنيك جورج تَحْمل اتّهامًا للأستاذ ألبير أديب صاحب مجلّة **الأديب** اللبنانيّة بأنّه يساير الأدباءَ الذين يرسلون له «اشتراكات الأنصار» فيَنْشر في مجلّته كتاباتهم. ولمّا كانت تربطني بصاحب **الأديب** علاقةُ صداقة وأنا على يقين بأنّه لا يلجأ إلى هذه الطريقة بالرّغم من أنّه يعاني الضّيقَ المادّيّ ولا تكاد **الأديب** تقوم بأوده وأودِ أسرته، فإنّ تهمة الكاتب العراقيّ ليست إلاّ افتراءً. وقد ساءني أن يتبنّى المعدّاوي كلام الكاتب العراقيّ وينشره في **الرّسالة** من غير أن يتحقّق من صحّته. وطالبتُ المعدّاوي بنشرِ ما يفيد الدفاعَ عن ألبير أديب، من غير أن يَذْكر اسمي في الموضوع.

وبعد أن ذلّلتُ الصعوبات الروتينيّة والأكاديميّة التي أَجَّلَتْ قبول السوربون تسجيلَ الأطروحة لدى عودتي إلى باريس عدتُ إلى مراسلة المعدّاوي، وطالبتُه بمساعدتي في إعداد رسالة الدكتوراه بموافاتي بالكتب والمراجع، راجيًا إيّاه «أن يعتبرني قارئًا من قرّائه الذين يمدّ لهم يدَ العون والنصح.» واعترافًا بما كنتُ أرجوه من مساعدة المعدّاوي لي في تحرير رسالتي، أحرص هنا على نقل بعض المقاطع من رسالتي إليه بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٥٠:

«أنت تَعْرف، يا صديقي أنور، ما تتطلّبه دكتوراه الآداب من

جهد ودرس وجمع وثائق، ولكنّي لن أكلّفك أمورًا شاقّة. ففي خلال دراستي الموضوعَ ستطرأ على ذهني مشاكلُ وأفكارٌ قد أحتاج في معالجتها إلى مساعدتك، ولن أتأخّر حينذاك عن استفتائك فيها، فاعتبرني قارئًا من قرّائك قبل أن تعتبرني صديقًا... والحقيقة أنّ الذي يزعجني هنا قلّةُ الوثائق العربيّة والكتب، وهذا هو الذي أرجو أن أزعجك به. ولكنّي لن أكلّفك شيئًا من الناحية المادِّيَّة، وأَرْفض ذلك رفضًا باتًّا. سأرسل لك ثمنَ كلّ شيء أطلبه، وأرجوك ألاَّ تعلّق على ذلك أيّ تعليق... وأنا لا زلت في أوّل الطّريق.»

وفي هذه الرّسالة أيضًا طلبتُ من المعدّاوي أن يحصل لي على نسخة من كتاب إسماعيل أدهم عن توفيق الحكيم، ونسخةٍ من كتاب مصطفى عبد اللطيف السحرتي عن القصّة المصريّة الحديثة. وقد جاءتني من أنور الرّسالة التالية:

«أخي العزيز سهيل

أستطيع الآن أن أهنّئك من قلبي على هذا التوفيق الباهر الذي ظفرتَ به.. كلّ ما أرجوه هو أن تعمل جاهدًا على استغلال هذه الفرصة التي أتيحت لك، والتي كنت تحلم بها منذ أمد بعيد: أعني أن تمضي في طريقك قُدُمًا، مستعينًا بعزم الشباب وبريق الأمل على تذليل كلّ صعب وبلوغ كلّ منال. وأنا واثق من أنّ النهاية ستكلَّلُ بالظفر وتتوَّجُ بالنجاح، ما دامت البداية قد أذن لها الله أن تكون وفق ما تريد!

أمّا أنا فثِقْ أنّه يسعدني أن أقدّم لك كلّ ما في طوقي من جهد

وكلّ ما في استطاعتي من عون، ولن يشغلني عن هذا الأمر شأن من شؤون الحياة أو فصل من فصول **الرّسالة**. . أنا يا صديقي طوع أمرك، وستجدني عند حسن الظنّ وعند حقوق الصداقة ومطالب الوفاء. وعندما تستقرّ على وضع نهائيّ من جهة المنهج الذي تُزْمع السيرَ عليه في رسالة الدكتوراه، أرجو أن تطالعني بخطوات هذا المنهج حتّى أستطيع أن أوافيك بما يعنّ لي من آراء متواضعة، وذلك من ناحية خطّ السير الفنّيّ الذي يحدّد كلّ خطوة وما يكمن وراءها من أهداف وغايات.

على أنّي أرى منذ الآن أنّ هناك فصلاً لا بدّ منه عند التمهيد للحديث عن القصّة العربيّة الحديثة، في الفترة الواقعة بين عامَيْ ١٩٠٠ و١٩٤٠.. هذا الفصل الذي أعنيه، والذي يجب أن تبدأ به رسالة الدكتوراه، يدور فيه البحثُ حول نصيب التراث العربيّ القديم من فنّ القصّة. ومن المعلوم أنّ هذا التراث الذي اقتطع من تاريخ البشريَّة ألفًا وخمسمائة عام على وجه التقريب، هذا التراث كان خلوًا من القصّة الفنّيَّة بمدلولها الصحيح في هذه الأيّام. لماذا خلا هذا التراثُ من القصّة الفنّيَّة؟ لماذا لم يلتفت الكتّاب القدامى من العرب إلى هذا اللّون من ألوان الفنّ؟ ولماذا لم تَهْضم عقليّتُهم هذا الضربَ من ضروب الأدب؟ ولماذا لم يُقْبلوا عليه عندما ازدهرتْ حركةُ الترجمة عن الأدب اليونانيّ والفكر اليونانيّ؟ كلّ هذه الأسئلة التي يمكن أن تثار في انتظار الجواب هي موضوعُ بحثٍ قيّم لفصلٍ قيّم، ينبغي أن يكون تميهدًا للحديث عن القصّة العربيّة الحديثة. صحيح أنّ العرب قد

أنتجوا لونًا من القصص، ولكنّه اللّون الشعبيّ المتمثّل في **ألف ليلة وليلة** وأدب «المقامات» وبعض الألوان الأخرى التي تجدها مثلاً في **بخلاء** الجاحظ. ولكنّ القصّة «الفنّيّة» لم يكن لها وجود على الإطلاق. هل أنت معي يا سهيل؟ أقصد هل أنت معي بفكركَ، وأنا أرغب إليك في الاهتمام بقيمة هذا العمل الذي يجب أن تبدأ به؟ هناك كلام نفيس في هذا الموضوع كتبه الأستاذ توفيق الحكيم في مقدّمة مسرحيّته **أوديب الملك** ويمكنك أن تفيد منه إفادةً كبرى، ولو أنّني قد اختلفتُ معه على صفحات **الرّسالة** حول تفسيره للأسباب التي حالت بين العرب وبين ترجمة الأدب المسرحيّ اليونانيّ والتي حالت في نفس الوقت بينهم وبين معرفة الأصول الفنّيّة لكتابة المسرحيّة وما يترتّب على ذلك من خلق نواة فكريّة لأدب القصّة. من الطبيعيّ أنّك محتاج إلى كتاب توفيق الحكيم الذي أشرتُ إليه، وقد يهمّك أن تَطّلع على رأيي الذي سجّلتُه على صفحات **الرّسالة** مخالفًا به الأستاذ الحكيم. أمّا عن أثر القصّة الغربيّة في إنتاج الكتّاب المصريين فقد كتب الأستاذ محمود تيمور عن هذه الزاوية فيما يختصّ بإنتاجه القصصيّ، وذلك في المقدّمة التي مَهّدَ بها لكتابه **فرعون الصغير**، وليس من شكّ في أنّك ستحتاج أيضًا إلى هذا الكتاب.

كما ستحتاج إلى كتاب ثالث هو **في أصول الأدب** للأستاذ الزيّات، لأنّ به بحثًا وافيًا عن قصص **ألف ليلة وليلة**. أمّا كتاب الدكتور إسماعيل أدهم عن «توفيق الحكيم» فهو كتاب لا بأس به ويمكنك أن تنتفع به أيضًا. لكن ممّا يؤسف له أنّه قد نَفَدَ من المكتبات منذ أعوام، وسأبذل جهدي في الحصول على نسخة

منه قد تكون موجودةً لدى الأصدقاء. وهناك فصول أخرى كُتبتْ في **الرّسالة** عن فنّ تيمور والحكيم ونجيب محفوظ وغيرهم بقلمي وقلم الأستاذ سيّد قطب يمكنني أن أبعث بها إليك. أمّا تلك الفصول الأخرى التي كتبها المرحوم فخري أبو السّعود في **الرّسالة** لا في **الثقافة** كما خُيّل إليك، فهي لا تفيدك في هذا البحث الذي تُعِدّه للدكتوراه، لأنّها لم تَعْرض لفنّ القصّة في الأدب العربيّ والآداب الأخرى وإنّما عَرَضتْ لفنون أخرى في نطاق المقارنة بين الأدبين: العربيّ والإنجليزيّ!

وبقي أن أقول لك فيما يختصّ بمحاولة الأستاذ مصطفى السحرتي إنّها محاولة لم يمضِ فيها بعدُ، لأنّه لا يزال يتهيّأ لها بالدراسة والتوفّر على جمع المصادر المختلفة من هنا وهناك. ثمّ إنّ هناك ناحية أخرى يهمّني أن أُطْلعك عليها وهي أنّ القصّة المصريّة الكاملة كما نعرفها عند الحكيم وتيمور وغيرهما من كتّاب الشيوخ والشباب هي وليدة فترة معيَّنة مقدارُها ربعُ القرن الأخير، أيْ من سنة ١٩٢٥ تقريبًا حتّى الآن. أمّا الفترة التي سبقتْها، وهي من سنة ١٩٠٠ حتّى سنة ١٩٢٥، فكانت القصّةُ فيها عبارةً عن محاولات بدائيّة عند المنفلوطي والمويلحي وغيرهما من الكتّاب؛ وهي فترة أصارحك بأنّ معلوماتي عنها غير كافية، ولهذا سأرجع إلى الأستاذين توفيق الحكيم وتيمور ليمدّاني بكلّ ما أحتاج إليه من معلومات عن الإنتاج القصصيّ في تلك الفترة التي مهّدتْ لظهورهما في عالم القصّة لأبعث إليك بهذه المعلومات. كما أنّ هناك ناحية أخرى أودّ أن أوافيك بها

عن مدى تأثير كتّاب القصّة الغربيين في فنّ توفيق الحكيم مستمدًّا من توفيق الحكيم نفسه، لأنّه لم يَكْتب شيئًا عن هذا الموضوع ولم يُكْتب عنه شيء فيما حُرِّر عن الأستاذ الحكيم من فصول، حتّى يكون بين يديك مرجعٌ آخر يُشْبه ذلك الذي كتبه تيمور في مقدّمة كتابه **فرعون الصغير**.

هذه بعضُ أشياء رأيت أن أحيطك بها في هذه الرّسالة الأولى، وأنا في انتظار آرائك ورغباتك حتّى يمكنني أن أعمل على هديها في مقبل الأيّام. وفي الرّسائل القادمة سأوافيك بقائمة أخرى عمّا يجدّ لديّ من آراء ومقترحات ومراجع، تستطيع أن تلتمس فيها شيئًا من الضوء الذي ينير مسالك الطريق.

أمّا عن مجلّة **الأديب** فأحبّ أن أقول لك إنّني لا أفكّر مطلقًا فيما حدث بيني وبين صاحبها من أمور؛ كلُّ ما فكّرتُ فيه هو أن أُطْلعكَ على هذا الذي حدث، لتكون على علم بما يجري في الحياة الأدبيّة من مفارقات. وأمّا تعليقاتك على اهتمامي بمشكلة الشاعر العراقيّ الأستاذ عبد القادر الناصريّ، فلم أكن أستطيع أن أقف مغلقَ القلب مكتوفَ اليدين، حيال إنسان استنجد بقلمي على صفحات **الرّسالة**. أديب من الأدباء لجأ إليَّ يا سهيل مستصرخًا في شخصي مشاعرَ الإنسانيّة والمروءة، فكيف لا ألبّي النداء ولا أستجيب للدعاء؟! قد يكون الناصريّ من ناحية الثقافة كما ذكرتَ، ولكنّه شاعر مطبوع ما في ذلك شكّ، وأنا أنظر إليه على أنّه شاعر فحسب. ثمّ لا تَنْسَ أنّ العامل الأوّل الذي هزّني في محنته هو أنّه إنسان فقير لا يملك القدرة على نفقات الإقامة

في بلد مثل باريس يريد أن يطلب فيها العلم، ولم يستطع أن يقضي تلك الفترة التي قضاها هناك إلاّ على نفقة وزير المعارف الخاصّة، وزيرِ المعارف الأسبق السيّد نجيب الرّاوي.. واضطرّ إلى العودة إلى بغداد حين نضبتْ مواردُه، وكان عليّ أن أرجو من وزير المعارف الحالي أن يقرّر له منحة سنويّة تعينه على مواصلة التعليم. وإذا كان هذا الوزير قد حال بين الناصري وبين هذا الحقّ المشروع، فليس لأنّه ضعيف من ناحية الإمكانيّات الفكريّة كما ذكرت، ولكنْ لأنّه إنسان لا يعرف هذا أو ذاك من باذلي الوساطات لدى الوزراء، ولأنّه من جهة أخرى لم يشأ أن يكون ذَنَبًا من الأذناب أو محسوبًا من المحاسيب!

ولك خالص الشوق وعاطر التحيّة من أخيك:

أنور المعدّاوي
٢٠/ ١٢/ ١٩٥٠»

أمّا رسالتي التالية إلى المعدّاوي بتاريخ ١٢/ ٢/ ٥١ فتحتوي على خبر موافقة السوربون النهائيّة على موضوع أطروحتي «القصّة العربيّة من ١٩٠٠ إلى ١٩٤٠ والتأثيرات الأجنبيّة فيها.» وشرحتُ خطّة بحثي، على كونها خطّة ناقصة بسبب قلّة المراجع... «المهمّ الآن أن أبدأ بقراءة القصص العربيّة جميعًا، دارسًا محلّلاً ناقدًا، وسأتبع في تسجيل ملاحظاتي طريقة الجذاذات، وستكون أنت يا أخي أنور مساعدي الأكبر» وقد أخذت باقتراحه بضرورة كتابة فصل تمهيديّ عن القصّة العربيّة القديمة، وقلتُ له «صدّقني إنّي مخجول من نفسي لمضايقتي

إيّاك، ولكنّ طمعي فيك شديد. أنت الصديق الوحيد الذي يمكن أن أعتمد عليه في مصر.»

وأخبرته في الرّسالة عن بعض أوضاعي المعيشيّة في باريس وعمّا تكلّفني الإقامة من نفقات «إنّ مناخ باريس يواتيني، على أنّني لا أسرف في التمتّع به لأسباب كثيرة أهمُّها حرصي على أن أنهي الأطروحة في أقصر وقت (ولكن دون أن تكون «مسلوقة»). إنّ نداء أسرتي وأعمالي في بيروت لا يفتأ يدوّي في سمعي. وأمّا المعيشة فعاليةُ التكاليف هنا إجمالاً، ولاسيّما المسكن. إنّني أدفع مبلغ ١٤ جنيهًا تقريبًا أجرةَ غرفتي بالأوتيل كلّ شهر، وهي غرفة أنيقة ممتازة، ويهمّني أن تكون كذلك لأنّني لا أغادرها كثيرًا. ولا أخفي عليك أنّي أتناول طعامي غالبًا في «مطاعم الطلاّب» بأسعار مخفّضة، وبهذه الطريقة وحدها أوازن ميزانيّتي وأنجح في أن أجعل المنحةَ الحكوميّة ومنحةَ المقاصد اللّتين أتناولهما كلّ عام كافيتين. هذا وأنا حريص على مشاهدة جميع المسرحيّات في باريس، ولعلّها أجمل المتع الفكريّة هنا، وإنّي أذهب إلى المسرح مرّة أو مرّتين كلّ أسبوع. وقد صمّمت على كتابة تعليقات ومقالات حول المسرحيّات التي أراها، وبدأتُ بالفعل، ولا أدري إذا كنتَ رأيتَ مقالاتي في **الأديب** عن مسرحيّة سارتر العظيمة **الذباب**. وأَذْكر لك بالمناسبة أنّي قرأتُ الأجزاء الثلاثة من كتابه أو روايته الكبيرة **دروب الحرّيّة** Les chemins de la liberté وأعجبتُ بها كثيرًا. وإنّي أتابع الأدب الفرنسيّ الحديث عن كثب وأقتني جميع الكتب الحديثة الجيّدة. وقد كتبتُ مقالاً آخر عن أندريه جيد بعد وفاته سيُنشر في العدد

القادم من **الأديب**. وسأكتب مقالاً ثالثًا عن مسرحيّة ممتازة عنوانها Monsieur boble كتبها بالفرنسيَّة شاعرٌ لبنانيٌّ مجيد يدعى جورج شحادة. وقد قامت معركة قلميَّة لا تزال حتّى الآن بين الشعراء والنقّاد الفرنسيين حول هذه المسرحيَّة التي لا تزال تُعْرض في مسرح صغير في باريس.»

ثمّ تلقّيت من المعدّاوي الرّسالة التالية:

«القاهرة في ١٩٥١/٣/٤

أخي العزيز سهيل

خالص الشوق وعاطر التحيّة وبعد،

فيؤسفني جدّ الأسف أن أتأخّر في الردّ عليك كلّ هذه الفترة. الواقع أنّ بعض الظروف الخاصّة هي التي حالت بيني وبينك وشغلتني عنك إلى حين! أمّا رسالتك الأخيرة فقد أسعدتني سطورُها حين حملتْ إليّ نبأ الموافقة على أطروحتك. ما هذا الليڤي بروڤنسال الذي كان معترضًا على الأطروحة؟ رحم الله امرءًا عرف قَدْرَ نفسه! إنّني أعرف هذا الرّجل حقّ المعرفة، أعرفه من خلال عقليّته التي تضعه في ذيل المستشرقين. مهما يكن من شيء فلا حاجة بنا إلى تجريحه بعد أن استخذى ووافق على موضوع رسالتك! أهنّئك يا عزيزي سهيل من قلبي، وأدعو الله أن يباركَ جهودَك ويسدّدَ خطاك.

وأُعَقِّب على ما جاء برسالتك الأخيرة فأقول لك: إنّ المنهج الذي رسمتَه للأطروحة منهج ضخم وموفّق، وأرجو أن تسير عليه. لا بأس به مطلقًا لولا هذه الأسماء الكثيرة التي تريد أن

تحشرها حشرًا! يكفي يا عزيزي سهيل أن تَذْكر الأسماءَ اللامعة التي رَسَمَتْ خطوطَ القصّة العربيّة ووضعت اللّبنات الأصيلة في بنائها الفنّيّ. أعني أنّه يكفي أن تتحدّث عن توفيق الحكيم وتيمور والمازني من شيوخ القصّة المصريّة في الفترة الأخيرة، وأن تتحدّث عن نجيب محفوظ ويحيى حقّي والسحّار من شباب القصّة المصريّة في نفس الفترة. أمّا العقّاد وطه حسين وسيّد قطب وغيرهم فيُسلكون في عداد الكتّاب لا في عداد القصّاصين، لأنّ القصّة ليست ميدانَهم الأصيل الذي يُنْسبون إليه، أعني أنّ مكانها من حياتهم الأدبيّة يجيء على الهامش دون الصميم! وحبّذا لو اتّبعتَ نفس النّهج في تعرّضكَ لكتّاب القصّة في لبنان وغيرها من البلاد العربيّة. ولستُ أدري كيف أَبَحْتَ لقلمك أن يَذْكر لي في مجال الحديث عن القصّاصين المصريين أمثالَ يوسف جوهر والورداني! ما هذا يا ابن إدريس؟ أتريد أن تتحدّث عن أناس لا نقيم لهم وزنًا في مصر لأنّهم من قصّاصي الشوارع، في أطروحة للدكتوراة ستقدَّم إلى السوربون؟! إيّاك أن تَعْرض ولو بكلمة واحدة لأمثال هؤلاء... وكيف نسيتَ يحيى حقّي فلم تُشِرْ إليه مع أنّه من المعادن النفيسة في القصّة المصريّة؟ وقد نسيتَ قصّاصًا مصريًا آخر في ميدان القصّة الاجتماعيّة هو عادل كامل، وقصّته **مليم الأكبر** تمثّل هذا الطابع كما تمثّل تمثيلاً صادقًا ذلك اللّون من الأدب الذي أشرتَ إليه في رسالتك، وأعني به «الأدب الملتزم!» وإذا كنتَ ستتحدّث عن القصّة التاريخيّة فلا تَنْسَ علي أحمد باكثير، ولا بأس من الحديث أيضًا عن سعيد العريان. وإذن فلا مناص من إضافة هذه الأسماء إلى

مَنْ سبق أنْ ذكرتُ لك، لأنّني كنتُ أريد أن تكون الدراسة مقصورة على مَنْ لهم أثر حقيقيّ في ميدان القصّة المصريّة!

وأعود إلى مسألة المراجع التي طلبتَ إليّ أن أبعث بها إليك: **ألف ليلة وليلة** لسهير القلماوي، **وفي أصول الأدب** للزيّات، **وأوديب الملك** لتوفيق الحكيم، **وتوفيق الحكيم** لإسماعيل أدهم، ومقالاتي ومقالات سيّد قطب في **الرّسالة والعالم العربيّ** إلخ.. أعود إلى هذه المراجع لأقول لك أوّلاً: إنّ مقالاتي في **الرّسالة** سأقتطعها وأبعث بها إليك، أمّا مقالاتي في **العالم العربيّ** فلا ترجعْ إليها لأنّني غير راضٍ عنها الآن، وإذا كنتُ راضيًا عن شيء منها فهو نقدي لكتاب **حفنة ريح** فحسب! وأمّا الفصول التي كتبها سيّد قطب في **الرّسالة** فهي موجودة في كتابه **كتب وشخصيّات**، ولهذا أوثر أن أبعث به إليك. وأقول لك ثانيًا إنّني سأوافيك بتلك الكتب الأخرى التي ذكرتُها لك، ومنها كتابُ إسماعيل أدهم الذي وعدني بإحضاره أحدُ الأصدقاء. وأرجو إذا عثرتَ على قصّة **سلوى في مهبّ الرّيح** لتيمور في باريس أن ترجع إلى المقدّمة التي كتبها فريد أبو حديد عن فنّ القصّة، حيث تحدث فيها عن محمود تيمور. ثمّ لا تَنْسَ تلك المقدّمة الأخرى التي كتبها تيمور بقلمه في كتابه **فرعون الصغير**. ترى هل أُرسل إليك أيضًا هذين الكتابين أم يمكنك أن تجدهما في باريس؟ أنا في انتظار ما تشير به. أمّا عن المعلومات التي تطلبها عن الرّعيل القصصيّ الذي مهّد لظهور الحكيم وتيمور، فسأتّصل بهما في الأيّام القليلة المقبلة لأحصل منهما على هذه

المعلومات تمهيدًا لإرسالها إليك.

ولعلّك تسألني عن سبب التأخّر في موافاتك بالأعداد الأخيرة من **الرّسالة**؟ أودّ أن أقول لك إنّ هذا راجع إلى تلك الفترة الطويلة التي انقطعتَ فيها عن الكتابة إليّ، حتّى لقد تبادر إلى ذهني أنّك قد رجعتَ مرّةً أخرى إلى لبنان. مهما يكن من شيء فقد أرسلتُ إليك الأعداد الأربعة الأخيرة منذ خمسة أيّام على عنوانك الجديد. ترى هل تلقّيت كلّ الأعداد التي بعثتُ بها على عنوانك القديم، أم ضاع بعضها في الطريق؟ أرجو أن تخبرني عن هذه المسألة بالذات لأطمئنّ، وبخاصّة عن الأعداد الأربعة التي قلتُ لك إنّني أرسلتها على عنوانك الجديد! بعد هذا أودّ أن أطمئنّ على أحوالك الصحِّيَّة والمعيشيَّة «والقلبيَّة». . كيف حال قلبك في باريس؟ أهو سليم معافى، أم هو مقهور أسير؟! وهل أنت مرتاح في مقرّك الجديد، أم تريد أن أكتب إليك الرّسالة المقبلة على عنوان آخر؟! وهل المعيشة في باريس باهظة التكاليف، أم معتدلة؟ كلّ هذه أشياء أودّ أن تكتب إليّ عنها. . وهل تقضي أوقاتك في أوكار «الوجوديين؟» وهل رأيتَ سيمون دي بوڤوار؟ وهل سرت في جنازة أندريه جيد؟ لا تنسَ أن تحدّثني عن هذه الأمور. ولك تحيّات أخيك: **أنور المعدّاوي.**»

وفي رسالة مطوّلة بتاريخ ٨/ ٣/ ١٩٥١ كتبتُ لأنور:

«الساعة الآن التاسعة والرّبع وأنا أكتب لك هذه الرّسالة على أنغام حلوة في الرّاديو، وليست هي من ألحان التانجو الحديثة،

ولا من المقطوعات الكلاسيكيَّة، وإنّما هي مقطوعة بعنوان «الساحرة» لموسيقاركم المبدع علي فرّاج. وأنا أسمعها من راديو القاهرة أثناء احتفال تذيعه المحطّة سمعتُ فيه هتافات بحياة الفاروق. وقد صرفتُ بعض الوقت قبل أن أستطيع التقاط القاهرة في صوت بعيد ضعيف، ولكنّي راضٍ به سعيد كلّ السعادة. فهذه أربعة أشهر تنقضي على وجودي في باريس، لم أسمع فيها سوى موسيقى الرّقص، ولاسيّما هذه الأنغام المجنونة التي يطلقون عليها اسم «الجاز،» والتي يرقص الوجوديّون وغيرُ الوجوديين هنا على أنغامها رقصاتٍ تذكّر بالقرود والسعادين. وإذن فمن الطبيعيّ أن أستشعر الحنين لبلادي وغناء بلادي.. وهذه مقطوعة «أماني» لعلي فرّاج تملأني غبطةً وتستخفّ بي، فلا أتردّد في أن أدمدم نغمها الذي أحفظه. ثمّ ها هو كارم محمود يغنّي. وهأنذا أعيش ساعات طويلة بين أهلي في لبنان وقرى العرب وأتأمّل في أحوالهم، ولاسيّما في هذه الفترة التي أقرأ فيها كثيرًا عن الأوضاع في مراكش، فأسعد بهذه اليقظة التي تتجلّى في صفوف الشعوب العربيَّة والتي أدعو الله من صميم فؤادي أن يُكْتب الفشلُ للرؤساء العرب إذا حاولوا خنقها، كما حاولوا ذلك مرارًا من قبلُ لضعفٍ في وطنيّتهم أو لتحريضٍ من الأجنبيّ.

ولكنْ مالي ولهذا كلّه الآن، فإنّني لم أقصد إليه في هذه الرّسالة.. لعلّها الأنغام الشرقيَّة ترافق أخبار هذا التوتّر في الشرق العربيّ، توقظ شعوري الوطنيّ، وتذكّرني ببلادي التي يشتدّ إليها

حنيني، بالرّغم من أنّني في باريس. لستُ من هؤلاء الذين يَقْلبون شفاهَهم كلّما ذُكِرَتْ هنا بلادُهم ويصرّحون بأنّهم لا يودّون مطلقًا العودةَ إلى وطنهم، لو كان ذلك متيسّرًا لهم، لأنّهم هنا سعداء. وأنا أيضًا سعيد هنا، ولكن أودّ العودة سريعًا إلى لبنان من أجل ذلك بالذّات، لأشارك ـ في حدود طاقتي وفي ميدان اختصاصي ـ جميعَ العناصر التي تعمل على رفع المستوى الثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ في البلاد.»

وتعليقًا على اقتراح المعدّاوي إسقاطَ بعض الأسماء التي ذكرتُها في الخطّة الأولى لأطروحتي كتبت له في الرّسالة نفسها أقول:

«لقد عبّرتَ عن رضاك تقريبًا عن المنهج الذي وضعتُه لأطروحتي. وأنا أعيد لك أنّ تغييرات كثيرة ستطرأ على هذا المنهج، كلّما مضيتُ في قراءة الآثار العربيّة التي تدخل في الموضوع، ثمّ تنتقد عليّ حشر أسماء كثيرة وتقترح ألاّ أُسْلِكَ في عداد القصّاصين إلاّ مَنْ كانت القصّةُ ميدانَه الأصيل. ولا شكّ في أنّي سأُسقط كثيرًا من الأسماء التي ذكرتُ في التصميم حين أَطّلعَ على نتاج أصحابها، ولكنّي أخالفكَ فيما تَذْهب إليه من إسقاط أسماء العقّاد وطه حسين وسواهما. فللأوّل قصّة «سارة» التي يقدّرها كثيرون من الأجانب، كما أنّ لطه حسين خمسَ قصص روائيّة بعضُها جيّد، ولا ننسى بعد ذلك أنّه يُعَدّ سيّدَ القصّة الأوتوبيوغرافيّة في كتابه **الأيّام** ثمّ إنّه لا يبرّر إسقاطَ القصّة من نتاج كثيرين كونُها تأتي على هامش نتاجهم. فأنتَ تعرف أنّ

النتاج الرئيسيّ لسارتر هو نتاج فلسفيّ، ولكنّ هذا لا يَمْنع من اعتباره سيِّدًا من أسياد القصّة الفرنسيَّة الحديثة بفضل كتبه **دروب الحرِّيَّة** و**الغثيان**. وكذلك القول عن أندريه جيد وسواه.»

وفي رسالة تالية بتاريخ ١٩٥١/٥/٩ أُبلغ المعدّاوي نَبَأَ إشراف المستشرق بلاشير على الأطروحة بدلاً من ليڤي بروڤنسال.

«أكتب لك هذه الرّسالة ـ أو هذه الكلمة ـ على عجل راجيًا المعذرة. فأنا منهمك في هذه الأيّام بإعداد امتحان الدبلوم النهائيّ للصحافة، وبكتابة محاضرة باللّغة الفرنسيّة دعاني إلى إلقائها في السوربون المستشرق المعروف بلاشير الذي تقرّر نهائيًا أن يشرف هو ـ لا ليڤي بروڤنسال ـ على أطروحتي. وكان سبق لبلاشير أن اطّلع على المخطّط الأوّليّ لموضوع الأطروحة فرضي عنه ـ بل أُعجب به ـ وكلّفني أن أُعدّ محاضرةً بالفرنسيّة أُلقيها على طلاّب اللّيسانس والدكتوراه في معهد الدراسات العليا بالسوربون، وهذه المحاضرة تتناول موضوعي بالذات والطريقة التي اتّبعتُها في معالجته.»

وفي رسالة تالية بتاريخ ١٩٥١/١٠/٣ أبلغتُ أنور أنّي «بدأتُ منذ شهر تقريبًا في تحرير الأطروحة وكتبت منها عدّة فصول بعد أن تبيّن لي أنّ الكتب المرسلة تنتمي كلّها إلى آخر حقبة من تاريخ القصّة العربيّة، وأنّ بوسعي أن أرجئ النظر فيها ـ ريثما تصل. وأجيب بهذه المناسبة أنّي أنوي الانتهاء من الدراسة وتقديمها في حزيران القادم بإذن الله لأعود في الصيف نهائيًا إلى لبنان. . .

وأنا أزعم لك الآن يا أنور أنّي اطّلعتُ اطّلاعًا واسعًا على الأدب الفرنسيّ الحديث، وعشتُ مع أكابر كتّابه أيّامًا، وأحببته وسأتابعه دائمًا. وأعتقد أنّي بدأتُ أتأثّر به في إنتاجي، كما لاحظتَ من بضعة فصول كتبتُها من روايتي **الحيّ اللاتيني** التي نُشر منها فصل في **الأديب** في أوائل هذا الشهر على ما أعتقد. وكلّ ما أرجوه أن نتعاون في المستقبل على رفع مستوى الأدب والنقد عندنا إلى الدرجة التي تَكْفل احترامَ الأجانب لإنتاجنا.»

وفي رسالة مؤرّخة في ١٥/١١/١٩٥١ أذكر للمعدّاوي أنّي «ماضٍ في تحرير أطروحتي بما تجمّع لديّ من مصادر ومعلومات. وقد وافاني كثير من الأدباء في العالم العربيّ بوثائق مفيدة عنهم وعن القصّة العربيّة بصورة إجماليّة. وقد كتبتُ من الرّسالة حتّى الآن زهاء مئة صفحة، وأحسبها لن تقلّ عن الخمسمئة.

ولا زلت عائشًا في الجوّ الأدبيّ الفرنسيّ الزاخر، أقرأ المجلاّت الأدبيّة وأتابع المناقشات وأَحْضر المسرحيّات الممتازة وأطالع آخر ما تدفعه المطابع لاسيّما في الأدب والنقد. وآمل حين عودتي إلى لبنان أن أشارك في حمل رسالة النقد النزيه العميق الصريح، وأن أتابع سيري كقصصيّ، لأنّه قد أصبح عندي رصيدٌ لا بأس به من القصص الطويلة والقصيرة.»

وفي رسالة مؤرّخة بـ ١٦ نوّار ١٩٥٢ أذكر لأنور أنّي فرغتُ من «تحرير أطروحتي وطبعها على الآلة الكاتبة. وتقديمها للسوربون، وستجري مناقشتها يوم الجمعة ٣٠ الجاري مع

المستشرق المعروف الأستاذ بلاشير وأستاذَي الأدب المقارن في كلِّيَّة الآداب بالسوربون. وهي تقع في حوالى الأربعمائة صفحة من القطع الكبير. ويدلّ التقرير الأوّليّ الذي قدّمه بلاشير إلى عميد الجامعة عن رضاه وتقديره للمجهود الذي بذلتُه في وضع هذه الأطروحة؛ وهذا ما يُطْمعني في أن أنال بعد مناقشتها درجةً عاليةً فيها.

وسوف أنصرف في الصَّيف القادم إلى كتابتها بالعربيّة وإضافةِ أشياء كثيرة عليها فاتتني بسبب قلّة الوثائق التي بين يديّ. وسترى يا عزيزي أنور أنّها أحدث دراسة وأوسعها (وأرجو أن تكون أعمقها) في دراسة القصّة العربيّة الحديثة في البلاد العربيّة في النّصف الأوّل من القرن العشرين. ويهمّني هنا أن أعبّر عن شكري للتشجيع الذي لقيتُه منك في معالجتها وللملاحظات القيّمة التي زوّدتني بها، فضلاً عن الكتب الممتازة التي اخترتها لي. كما أنّي أفدتُ، وسأفيد بعدُ، من كتابك **نماذج فنّيّة في الأدب والنقد**، في غير ناحية واحدة.

ودراستي هذه ليست تأريخًا للأدب وحسب، وإنّما هي كذلك عمل نقديّ ـ بل لعلّ جانب النقد فيها هو خير جوانبها. وقد هنّأني عليه مقرّر الأطروحة. وأحسب أنّي منذ الآن سأوجّه معظم اهتمامي إلى الأدب العربيّ الحديث وأنشئ عنه دراسات واسعة، فألتقي بك على هذا الصعيد الذي بذذتَ فيه الكثيرين فأصبح يقام وزن كبير لما تكتبه في هذا الباب. ولعلّ الظروف أن تتيح لنا التعاونَ المثمرَ في المستقبل، كلّ في البلد الذي يقيم فيه. وأنا

أغذّي منذ الآن مشروع إصدار مجلّة أدبيّة أرى لبنان وسوريا والعراق بأشدّ الحاجة إليها، وسأحدّثكَ فيما بعد مطوّلاً عنها، لاسيّما وأنّي أطمع بمساعدتك فيها.»

وفي ما يلي جواب أنور:

أخي العزيز سهيل

كنتُ أقدّر تمامًا انقطاعكَ عن الكتابة إليّ، وهو أنّك منصرف إلى إتمام رسالة الدكتوراه، ومن هنا انقطعتُ أنا أيضًا ـ متعمّدًا ـ عن الكتابة إليك.. لقد آثرتُ مخْلصًا ألاَّ أشغلكَ عن أداء واجبك نحو نفسك ونحو مستقبلك، مع لهفة الشوق إلى التحدّث إليك من وراء السّطور والكلمات!

ولست أدري كيف أعبّر لك عن وقع المفاجأة السعيدة على نفسي، حين أنبأتني بأنّك قد انتهيتَ من طبع الرّسالة وأصبحتَ على استعداد للمناقشة. الحقّ أنّني فرحتُ بك وفرحتُ لك، لأنّك قد بذلتَ من الجهد ما هيّأ لك أن تَفْرغ من هذا العمل الكبير في مثل هذا الوقت القصير. وكم كنت أخشى أن تشغلك باريس عن بذل هذا الجهد فيضيع عليكَ من الوقت الثمين ما أنت في حاجة إليه!

لقد كنتَ إذن عند حسن ظنّ أصدقائك هنا وهناك، ومن حقّك على هؤلاء الأصدقاء ـ وأنا في طليعتهم ـ أن يقدّموا إليك أخلصَ التهنئة وأصدق الإعجاب. الحقّ يا سهيل أنّني لا أهنّئك بقدر ما أهنئ نفسي، لأنّ كلّ ما تَظْفر به من خير هو لي قبل أن يكون لك. واغفرْ لي أنانيّةَ الوفاء التي تُشْعرني بأنّ أصدقائي ما

هم إلاَّ قطعةٌ منّي قبل أن يكونوا قطعةً من الآخرين!

ولا يسعني بعد هذا كلّه إلاَّ أن أدعو لك بدوام التوفيق واطّراد النجاح، حتّى تجتاز مرحلة المناقشة مرفوعَ الرأس موفورَ الكرامة، وتعودَ إلى أهلك ووطنك لتبدأ حياة جديدة كلُّها أملٌ وكلّها رجاء!

وتسألني إنْ كنتُ ما أزال أكتب في **الرّسالة** فأقول لك: لقد انقطعتُ عن الكتابة فيها منذ فترة قصيرة لأنّني اليوم مشغول بطبع كتابين، أحدهما لي والآخر للشاعرة فدوى طوقان. أمّا كتابي الجديد فهو عن صديقي الشاعر الراحل علي محمود طه، حيث أكملتُ كتابة فصوله الباقية وهي من ناحية الكمّ ضعفُ الفصول التي نُشرتْ في **الرّسالة**. وغاية ما أقوله لك عن هذا الكتاب إنّه يتحدّى كتابَ العقّاد عن «ابن الرّوميّ» وكتابَ ميخائيل نعيمة عن «جبران». . وسترى يا عزيزي سهيل ويرى الناس!!

أمّا عن الكتاب الآخر وهو ديوان فدوى فالفضل في إشرافي على طبعه يرجع إلى صديقنا سعيد تقيّ الدِّين. لقد قرأ سعيد يومًا قصيدة لفدوى عنوانها «أشواق حائرة» ففُتن بها وكَتَبَ إليها معبّرًا عن بالغ إعجابه وعظيم تقديره، في أسلوب يفيض رقّة وعذوبة. ثمّ انتهى من ذلك الإعجاب وهذا التقدير إلى مواجهتها بهذا السؤال: كيف يبقى هذا الشعر الفاتن حتّى اليوم وهو مبعثر على صفحات المجلاّت دون أن يُجمع في ديوان؟! وردّت عليه الشاعرة الموهوبة تقول: لأنّ دُور النشر هنا وهناك مُضرِبة عن طبع الدواوين الشعريَّة على نفقتها الخاصّة. قالت له هذا وهو

حقّ، فكتب إليها راجيًا أن ترسل إليه الديوان في أقرب فرصة ليطبعه لها في أقرب فرصة، ولو كان ذلك على نفقته الخاصّة تقديرًا لشعرها الرّصين وتمجيدًا لذكرى صديقه الرّاحل.. أخيها إبراهيم طوقان.

وأسرعتْ فدوى فأرسلتْ إليه الديوان مع كلمة شكر رقيقة يَصْحبها اعترافٌ بالجميل.. ومرّ شهر وشهران دون أن يظهر الديوان ودون أن تتلقّى فدوى كلمة واحدة من سعيد، ولا حتّى كلمة أسف واعتذار. ولم تكتب إليه الشاعرة لا عاتبةً ولا غاضبةً. ولولا مناسبة من المناسبات ورد فيها ذِكْرُ الشيخ سعيد في رسالة من رسائلي إليها لما ذكرتْ لي عنه هذه القصّة الطريفة. وحين اطّلعتُ على القصّة كتبتُ إليها لأعطيها فكرة واضحة عن شخصيّة سعيد تقيّ الدّين، وفسّرتُ لها التكوين النفسيّ لشخصيّته «العجيبة» تفسيرًا طريفًا ينجّيه من كلّ لوم ويُعْفيه من كلّ عتاب.. ثمّ طلبتُ إليها أن ترسل إليّ الديوان لأدفع به إلى أيّ دار من دور النشر في القاهرة، ولن تتأخّر أيُّ دار هنا عن الاستجابة لرغبتي إذا ما رغبت إليها في طبع هذا الديوان. ولم أنس أن أؤكّد لها في ختام الرّسالة أنّني من ناحية الوعود أصدق من سعيد تقيّ الدّين!

هذه يا سهيل هي القصّة، وسيظهر الديوان في الأسبوع الأوّل من شهر يونيو إنْ شاء الله، أيْ بعد أسبوعين على وجه التقريب. ولقد أخبرتني فدوى بأنّ أوّل نسخة من الديوان ستُهدى إلى الشيخ سعيد، تقديرًا لجهوده المشكورة في طبع الديوان!

وتريد أن تُصْدر مجلّةً أدبيّةً يا سهيل؟ إنّها أمنية حلوة آمل أن تتحقّق. الواقع أنّنا محتاجون إلى مجلّة من نوع ممتاز، لأنّ الأقطار العربيّة قد خلت من مثل هذه المجلّة منذ أمد بعيد. وصدّقْني إذا قلتُ لك إنّني على أتمّ استعداد للتعاون معك ولو أدّى ذلك إلى انقطاعي عن التحرير في **الرّسالة**، حتّى نستطيع أن نُخرج هذه المجلّة على الوجه الذي نحبّ. كلّ ما أرجوه هو أن تكون جادًّا في هذا المشروع، وأن تحدّثني عن ظروفه المادّيّة والمعنويّة.

وبقي أن تكتب إليّ عقب انتهائك من مناقشة الدكتوراه لأطمئنّ عليك، أيْ قبل أن تغادر باريس إلى بيروت، ولن أصبر حتّى تكتب إليّ من الإسكندريّة! أفاهم أنت؟ أمّا عن جهودي المتواضعة التي شئتَ أن تذكرها في رسالتك فلا أشعر أنّ لي جهودًا تستحقّ أن تُذْكر. إنّ سهيل وأنور شخص واحد، وليس من المستساغ أن يَشْكر أحدهما الآخر لأنّه يكون قد شكر نفسه. وهذا لون من حبّ الذّات!

ولا تنس مرّةً أخرى أن تكتب إليّ عند وصولك إلى الإسكندريّة بسلامة الله وعند وصولك إلى بيروت. وفي انتظار أنبائك أرجو أن تتقبّل خالص الشوق وعاطر التحيّة من أخيك:

أنور المعدّاوي

٢٤/٥/١٩٥٢»

*** *** ***

في مكتبة السوربون تعرّفتُ على فتاة ألمانيّة تُحسن الفرنسيّة.

وقبل أن نفترق دعوتُها إلى تناول فنجان قهوة تركيّة في الفندق الذي كنتُ أنزل فيه، فتحلّب ريقها للقهوة التركيّة وسارعتْ بالموافقة. وحدّثتُها في الفندق عن رغبتي في الاطّلاع على ما كتبه المستشرق كراتشوفسكي في تاريخ الأدب العربيّ الحديث، واقترحت عليها أن تترجم لي من كتابه هذا الفصول المتعلّقة بالرواية العربيّة المعاصرة لقاء أجر معلوم. فرحّبتْ بالاقتراح وتوافقنا على لقاء آخر تكون قد استحضرتْ فيه المرجعَ المطلوب. وقد وجدتُ في تلك الدراسة ما كنتُ أطمع فيه من الاطّلاع على رأي ذلك المُستشرق في روايتنا العربيّة. وقد اقتبست بالفعل بعض ملخّصاته وآرائه في أدبنا الرّوائيّ.(١) وقبل أن تغادر بريجيت غرفتي قبّلتها قبلةَ شكرٍ، فبادلتني إيّاها بأحرَّ منها. وكان طبيعيًا أن تتطوّر علاقتنا. قلتُ لها:

- أنت تترجمين لي، فاسمحي لي أن أترجِمَ لك بدوري شوقي لعناقك.

وكانت هي المبادِرة هذه المرّة.

وتبادلنا الترجمة.

وتوطّدتْ بيننا علاقةٌ أفدت منها كثيرًا، وخصوصًا ممّا ترجمته لي بريجيت وأثبتُّه في الأطروحة. ولا أدري كم أفادت هي من ترجمتي!

تمّت مناقشة الأطروحة يوم الجمعة ١٩٥٢/٥/٣٠. وحين صعدتُ المنبر الذي كان المستشرق بلاشير والأستاذان داديان ومورو جالسينْ عليه، نظرتُ فرأيت في القاعة عددًا من أصدقائي

(١) ذكرتُ هذا المرجع في المصادر التي أثبتُّها في نهاية الأطروحة.

الذين حضروا المناقشة ومنهم عبد الله عبد الدائم وعلي شلق وصباح محيي الدِّين وصباح قبّاني (شقيق نزار) ومظهر الشربجي. ورأيتُ في جانب من القاعة الصديقة الألمانية بريجيت فحيّيتُها بابتسامة سريعة.

دامت المناقشة أقلّ من ساعتين، كما ذكرتُ في رسالتي إلى أنور المعدّاوي المؤرّخة في ٣١/ ٥/ ١٩٥٢:

«... وقد تمّت المناقشة في إحدى قاعات السوربون الكبرى ودامت أقلّ من ساعتين ـ وهذا وقت قصير في تاريخ مناقشة الرّسائل. ولا أكتمكَ يا عزيزي أنّ السّبب في ذلك يعود إلى أنّ انتقادات اللّجنة الفاحصة كانت قليلة وشكليَّة، لأنّ جميع أعضائها كانوا معجبين أشدّ الإعجاب بالرّسالة. وأنا نفسي استغربتُ وكنتُ أنتظر انتقاداتِ وملاحظاتِ مقرّرِ الرّسالة الذي بدأ حملة المديح، فهنّأني على أنّي كنتُ كثير الشجاعة في اقتحام موضوع صعب وواسع جدًّا كموضوعي، فضلاً عن أنّه لا يزال من المواضيع «العذراء» التي لم تُبحثْ إلاّ قليلاً جدًّا. وعبّر عن إعجابه بالتحليل وبالناحية النقديّة من الرّسالة وبالابتعاد عن التغرّض غالبًا. وقد انتقد بعض الانتقادات في مسألة تصنيف الأدباء، وكان مجمل قوله إنّي سددتُ ثغرةً في دراسة الأدب العربيّ الحديث. أمّا كلمة الأستاذ داديان، أستاذ الأدب المقارن في السوربون، فانصبّتْ في مجملها على أسلوبي، وقد عبّر عن استغرابه في أن يستطيع شرقيّ مثلي أن يكتب الفرنسيّة ويعبّر عن أفكاره في أثناء المناقشة بمثل السهولة والانطلاق والسرعة التي

عبّرتُ بها عن آرائي. وقال إنّه اهتمّ شديد الاهتمام بآثار الجيل الجديد من الكتّاب العرب الذين درستُهم، وقال إنّ دراستي حبّبتْ إليه دراسةَ اللّغة العربيّة ليتمكّن من تذوّق الأدب العربيّ الحديث تذوّقًا شاملاً. وأضاف متفكّهًا: «سأعمل جهدي لأحضر بعد الآن دروسَ الأستاذ بلاشير العربيَّة!» ثمّ قال إنّ دراستي عن القصّة المصريّة حتّى عام ١٩٤٠ وعن القصّة العراقيّة حتّى ١٩٥١ هي دراسة ممتازة واكتشف بواسطتها أنّ عندنا أدباء «عالميين،» ونصح بأنْ يُكْثِر المثقّفون العرب من وضع دراسات عن أدبهم الحديث الذي يكاد لا يُعْرَف في الغرب. ووافقه على الرّأي الأستاذ مورو، أستاذُ الأدب الحديث بالسوربون، الذي ناقشني خصوصًا في أحد الموضوعين الثانويين عن «النزعة العجائبيّة» في رواية **مولن الكبير** لألين فورنيه (وكنت قد ترجمتُ هذا الكتاب إلى اللّغة العربيّة)، وقال إنّ عندي آراء مبتكرة وذوقًا ظاهرًا في تفهّم الأدب الحديث، فضلاً عن الاطّلاع الواسع على الأدب الفرنسيّ المعاصر.

وانسحبت اللّجنة بعد ذلك، فكانت لحظة خوف وترقّب يا عزيزي أنور، وقفتُ فيها خافق الصدر. ثمّ عادت بعد دقائق ليعلن رئيسها بالحرف الواحد:[١]

«M. Idriss! La Faculté des Lettres de Paris, après avoir pris connaissance de votre thèse et de votre soutenance, est

(١) وترجمتُه: «السّيّد إدريس! إنّ كلّيّة الآداب في باريس، بعد أن اطّلعتْ على أطروحتكَ وعلى مناقشتكَ لها، يسعدها أن تعلنك جديرًا بدكتوراه مع درجة مشرّف جدًّا، وتتمنى لك النجاح الذي تستحقّه.»

heureuse de vous déclarer digne du titre de Docteur avec la mention 'très honorables' et vous souhaite la réussite que vous méritez.»

وهنا دوّت القاعةُ بتصفيق الأصدقاء، وغير الأصدقاء من اللبنانيّين والسوريّين والعراقيّين والمصريّين والفرنسيّين.»

وقد فاتني يومها أن أروي في هذه الرّسالة لأنور دعوتي لبريجيت إلى العشاء. فبعد أن فرغنا من تناوله قبّلتني بريجيت قائلةً إنّها تريد هي أيضًا أن تكافئني على هذا النجاح. وقالت لي قبل أن تغادرني: «إنّ مضاجعة دكتور في الأدب تختلف كثيرًا عن مضاجعة طالب للدكتوراه».(١)

أنهيتُ تلك الرّسالة إلى المعدّاوي بالكلام التالي:

«اعذرْني يا عزيزي أنور على لهجة الاعتزاز التي تَرْشح من هذه الرّسالة. فأنت تعرف قبل كلّ إنسان أنّ هذه كانت أمنيتي منذ ثلاث سنوات، وأنّها كلّفتني من الجهد والوقت والمال والضِّيق ما يَجْعل منها، لدى تحققها، موضوعَ السعادة كلّها. وأنا أشكر لك يا أنور عاطفتَكَ الكريمةَ التي حملتها رسالتك الماضية التي تَنْبض بكلّ إخلاصك ومحبّتك لي. وإنّ عندي أشياء كثيرة أقولها لك، ولكنّي سأؤجّلها إلى الرّسالة القادمة التي سأرسلها بإذن الله من بيروت. وإنّما أحببتُ أن أوافيك بهذه الرّسالة بناءً على رغبتكَ، ولأبلغك نبأ نجاحي في الرّسالة. وأبعَثُ إليك بقبلاتي

---

(١) لو كان صديقي المرحوم نجيب سرور ما يزال حيًا لكتب ملحقًا لدراسته المعنونة «نرجس في **الحيّ اللاّتيني**» التي نُشرتْ فيما بعد في **الآداب** ليقول في هذا الملحق «هل هناك أنصعُ من هذا الدليل على نرجسيّة بطل **الحيّ اللاّتيني**؟»

المخلصة، وإلى اللّقاء القريب يا صديق الرّوح.»

وسأروي في الجزء الثاني من هذه الذكريات ما آلت إليه علاقتي مع المعدّاوي، صديق الرّوح، بعد مشاركته إيّاي في تحرير مجلّة **الآداب**.

أقاصيصي الأولى

أصدرتُ مجموعتي القصصيّة الأولى بعنوان **أشواق** عام ١٩٤٧ في منشورات دار العلم للملايين. ولكنّي أنفقتُ على إصدارها من مدّخراتي الخاصّة، لأنّ دار العلم اعتذرت آنذاك عن إصدارها على نفقتها.

وقد تفاوت استقبالُ المجموعة لدى النقّاد بين التجريح والمديح. غير أنّ ما لقيته من ثناء شجّعني على المضيّ في كتابة القصّة القصيرة.

وكما ذكرتُ سابقًا، كان النّاقد المصريّ أنور المعدّاوي من أوّل الذين تناولوا هذه المجموعة بالنقد في مجلّة **العالم العربيّ**، ثمّ أصدر هذا النقد في كتابه **نماذج فنّيّة في الأدب والنقد**.

وقد كتب الأديب العراقيّ شاكر خصباك دراسة لهذه المجموعة نُشرتْ في مجلّة **الأديب**[1] بدأها بقوله:

«فها هي بشائر العبقريّة تبدو جليّة في قصص بعض أدباء الشباب كآثار القصّاص المصريّ الأستاذ نجيب محفوظ،

---

(١) مجلّة الأديب، عدد شباط، ١٩٤٧.

والقصّاص اللبنانيّ الأستاذ سهيل إدريس، وغيرهما من القصّاصين المبدعين. وقد أصدر الأستاذ سهيل مؤخّرًا باكورة تآليفه بعنوان **أشواق**، فبرهن به على خيال قصصيّ خصب ومقدرة فنِّيَّة فذّة.»

وقد أخذ الأديب خصباك على مجموعتي القصصيّة الأولى اقتصاري على «تصوير العواطف الجنسيّة وتحليلها،» بالرّغم من أهمِّيَّتها وخطورتها في حياة الأُسرة. ويَعْتبر أنّ «معالجة هذه الناحية قد شغلته نوعًا ما عن التطرّق في قصصه إلى معالجة مشاكل المجتمع الأخرى.»

كما اعتبر النّاقد شاكر خصباك أنّ أبدع تلك الأقاصيص هي قصّة «أشواق». فلقد «بذل الأستاذ سهيل في صوغها وتصوير العواطف التي تموج بها من عنايته واهتمامه ما جعلها تحفةً فنِّيَّة نادرة.»

وقد كان خصباك ميّالاً إلى الأسلوب الذي عالجتُ فيه القصص، وهو أسلوب يتّسم «بالبساطة» كما يرى. ولهذا يعتبر أنّه يجعل من القصص «قطعًا زاخرة بالحياة، فلا يصطدم القارئ بشخوص قصّةٍ آليّةٍ يحرّكها المؤلّف من وراء الستار ويدفعها إلى الحركة دفعًا.»

ورغم أخذ الناقد عليّ أنّني أهملتُ المواضيع الاجتماعيَّة، فإنّه يعود ليقول إنّني في قصّة «امرأة» تناولتُ موضوعًا مهمًّا أهمله النّاس: «فقد سجّل لنا فيها المؤلّف درسًا اجتماعيًّا طليًّا طالما أَهمل النّاسُ الأخذَ به في كلّ بلد لم ينل حظًّا وافرًا من

الحضارة، هو حرِّيَّة الزواج.»

وبأسلوب لا يخلو من الفكاهة انتقد الكاتب قصّتي «هي وكلبها» حين اعتَبَرَ أنّني أصوِّرُ في هذه القصّة «عاطفة الحيوانات»، فقال: «ولست أدري هل قلّد الأستاذ سهيل أسلوبًا غربيًا من حيث تحليلُ نفسيّات الحيوانات، أم أراد أن يمزج بين العلم والأدب فأتحفنا بدرس عريض عن نفسيّة الكلاب!»

وختم خصباك بالقول:

«وأودّ أن ألفت نظر القارئ ـ قبل أن أختم النقد ـ إلى أنّ اللّغة التي سجّل بها الأستاذ سهيل أقاصيصه لغةٌ على نصيب وافر من الرّشاقة والجمال. إلاّ أنّه استعمل بكثرة لفظة «أنحى» حتّى كان بعض الأحيان يكرّرها بضعَ مرّات في القصّة الواحدة، وهي لفظة لا تلائم أسلوبًا قصصيًا رشيقًا كأسلوبه. كما أنّه استعمل بكثرة أيضًا كلمة «زعيم» بمعنى «كفيل»؛ ونصيب هذه اللّفظة من النجاح في فنّ القصّة كنصيب أختها. على أنه ابتدع كذلك عبارات حلوة تنتزع الإعجاب انتزاعًا. ولا يسعني أخيرًا إلاّ أن أقول إنّ مجموعة **أشواق** نصر عظيم للقصّة اللبنانيّة.»

ولعلّ ما كتبه الأديب اللبنانيّ سعيد تقيّ الدِّين في نقد مجموعتي **أشواق** هو أطرف وأعمق ما كُتب عنها، وسيرد ذكرها في الفصل الخاصّ عن سعيد تقيّ الدِّين.

* * *

أمّا مجموعتي الثانية **نيران وثلوج** (١٩٤٨) فقد وقف منها

الناقد المصريّ سيّد قطب موقفًا شبه سلبيّ،[1] معترفًا أنّ مقالته عن المجموعة «خواطر سريعة.» ومع ذلك فنحن نلخّص مآخذه على المجموعة التي قرأها كما يقول في فترة راحته، بينما كان يشتغل على كتابه **العدالة الاجتماعيّة في الإسلام** وفي ليلة واحدة، معترفًا كذلك بقوله «تستطيع أن تعزو شعوري تجاه كتابكَ إلى أنّني مكدود الذّهن، أو إلى أنّني سيّئ التذوّق لأدب الخلق والإنشاء في فترة أنا مستغرق في جوّ البحث والتنقيبِ، وبين الكتب الصُفْر والغبر من مخلّفات القرون الهجريّة الأولى، فقد لا أصلح بحالتي هذه لقراءة الأقاصيص!»

واعتبر سيّد قطب أنّ قصّة «قبلة اليد» هي «أقصوصة واحدة كاملة سليمة» صادفْته في المجموعة، وما تبقّى من قصص وصفها بـ «مشروعات أقاصيص ناقصة.» وهو ما حدا بالنّاقد المصريّ مصطفى عبد اللّطيف السحرتي أن يردّ على سيّد قطب في عدد آخر من أعداد **الأديب**،[2] مستغربًا تردّد سيّد قطب في أحكامه إذ يقول السحرتي:

«إنّ قصّة «أصداء» قصّة بديعة، استوفت عناصر القصّة. ولكنّ الأستاذ قطب يتأرجح في تقديرها: فمرّةً يراها مشروعَ قصّة ناقصًا، ومرّةً يراها قصّة قويّة، وثالثةً يراها أقرب ما تكون إلى الكمال. وعجيب أن يرى الأستاذ قطب أنّ القصّة الكاملة في هذه المجموعة هي «قبلة اليد،» ونحن لا نراها ترتفع إلى مستوى

---

(١) مجلّة **الأديب**، عدد آب، ١٩٤٨.

(١) مجلّة **الأديب**، عدد ت١، ١٩٤٨.

القصص الثلاث «نيران وثلوج» و«أصداء» و«أحلام ضائعة» بل نراها صورة من صور الحياة تناولها المؤلّفُ تناولاً قصصيًا بديعًا. وهكذا لو سرنا مع نقد الأستاذ سيّد قطب لوجدنا أنفسنا نختلف معه في كثير من نقداته لهذه المجموعة.»

علمًا بأنّ السحرتي كان في أوّل ردّه على مَنْ تناولوا المجموعة قد أشاد بها:

«وأقول، مخْلصًا، إنّي أعدّ أسلوب هذا المؤلّف من الأساليب الجذّابة اللمّاعة، وإنّ طريقة عرضه القصصيّ هي طريقة اللّمحات الخاطفة التي تلقي على شخوص الرواية شعاعات كاشفة وهي الطريقة المسمّاة بطريقة الضوء الخاطف Spotlight وهي لا تقلّ جذبًا وجمالاً عن طريقة العرض الشاملة السابقة التي يسمّونها بأشعة إكس X - Ray. وقد تجمل إحدى هاتين الطريقتين لناقد ما، وهذا لا يغضّ بتاتًا من شأن الثانية في التقدير النقديّ المتّزن السليم.»

وفي العام ١٩٤٩ صدرت مجموعتي القصصيّة الثالثة **كلّهنّ نساء**، التي لم تُتَحْ لي متابعةُ ما كُتب عنها وما دار حولها من نقاش وما أبدي فيها من آراء، لأنّني قد سافرتُ إلى باريس في أواخر العام نفسه لتحصيل شهادة الدكتوراه في الآداب.

ولمّا كانت هذه المجموعات الثلاث قد نفدت من الأسواق فقد رأيتُ أن أعيد نشرها مجموعة في كتاب موحّد بعنوان **قصص سهيل إدريس ـ أقاصيص أولى** عام (١٩٨٠) ويهمّني هنا أن أثبت في هذه السّيرة الذاتيّة نصَّ المقدّمة التي نشرتُها في هذه

المجموعة، طارحًا فيها مشكلةَ إعادة نشر الكتب التي لا تمثّل بعدُ نتاجَ أديبٍ ما، وخصوصًا بواكيره، إذ غالبًا ما يتخلّى كثيرٌ من الكتّاب عن نتاجهم الأدبيّ في مرحلة الشّباب.

مقدّمة مجموعة أقاصيص أولى

هل يحقّ لمؤلِّف أن يحجب عن القرّاء أثرًا أدبيًّا كفّ عن أن يمثّله؟

لقد بدأتُ كتابة القصّة وأنا لم أتجاوز الخامسة عشرة، ونَشرتْ لي المجلاّتُ والصحفُ بعضَ الأقاصيص في الأربعينيّات. ثمّ جَمعتُ هذه الأقاصيص في ثلاث مجموعات هي **أشواق** و**نيران وثلوج** و**كلهنّ نساء** التي صدرتْ، على التوالي، أعوام ١٩٤٧ و١٩٤٨ و١٩٤٩.

وحين خطر لي أخيرًا أن أعيد نشر مجموعاتي القصصيّة الثلاث التي صدرتْ بعد ذلك، وهي **الدّمع المرّ**، و**رحماك يا دمشق** و**العراء** التي ظهرتْ على التوالي في أعوام ١٩٥٦ و١٩٦٥ و١٩٧٣ ونفدتْ منذ فترة، تذكّرتُ تلك المجموعات الأولى التي نسيها القرّاء، وكدتُ أنساها معهم، فخطر لي أن أعيد نشرها. ولكنّي، إذ رجعتُ إليها أقرأها من جديد، أحسستُ بعدم الرّضى عنها، وحكمتُ بأنّها لا تمثّلني بعدُ.

بيد أنّي توقّفتُ عند مضمون هذه العبارة الأخيرة: «لا تمثّلني بعدُ». . . إذن فقد كانت تمثّلني من «قبل،» في فترة من إنتاجي.

فهل يحقّ لي أن أُسْقِطها من حساب التطوّر الفنّيّ الذي مرّ به هذا الإنتاج؟

إنّني أبتسم الآن لدى قراءتي لكثير من هذه الأقاصيص الأولى، وأحزن أحيانًا لما في بعضها من سذاجة أو فجاجة، وأتململ لما في بعضها الآخر من تكلّف في الأسلوب وتقعّر في اللّغة وحشو وإطناب، حتّى لأُنْكِرُ أنّي أنا كاتبها. ثمّ أَذْكر السنّ التي كَتبتُها فيها، وأَذْكر الثقافةَ المحدودة التي رَفَدَتْها، وأَذْكر التجربةَ الضيِّقة التي أَلهَمتها، فتنشأ لديّ القناعةُ بأنّني لا ألتمس المعاذير إذا حكمتُ بأنّها من إنتاج الشباب الأوّل الذي يَفْتقر إلى النضج الحياتيّ والنضج الفنّيّ جميعًا، بالرّغم من أنّ الدارس يستطيع بلا عناء أن يجد في هذه الأقاصيص الأولى بذورًا لجميع النزعات الواقعيّة والقوميّة والاجتماعيّة التي يجدها ناضجة في أقاصيصي التالية.

ولكنّ هذه الأقاصيص قد صدرتْ من قبلُ، وأُلقيتْ بين أيدي النّاس، وتناولها النقّادُ، فليس لي حقّ بعدُ في أن أحجبها بدعوى أنّي غير راضٍ عنها. إنّها من تاريخي الأدبيّ الذي لا أملك أن أُنكر منه مرحلةً، وأقرّ مرحلةً. فهي، إذن، مِلْك القرّاء والنقّاد والمؤرّخين.

وأتساءل بعد ذلك: أنّى لهؤلاء القرّاء والنقّاد والمؤرّخين أن يرصدوا التطوّر الأدبيّ لكاتب ما إذا لم يُتَحْ لهم أن يدرسوا مراحل إنتاجه ويقارنوا ويقابلوا بين مختلف آثاره؟

إنّني إذن، في هذه المجموعة الجديدة، مُلْقٍ بإنتاجي القصصيّ

الأوّل، دون أيّ تعديل، بين أيدي القرّاء. وهو إنتاج يُمْكن أن يوصَفَ بأنّه «المرحلة الرومانتيكيّة» التي تنتهي، في حساب سنّ الكاتب، ببدء «المرحلة الباريسيَّة،» إذا صحّ التعبير، تلك المرحلة التي أَنتجتْ أثرًا هامًّا في حياة الكاتب الأدبيّة هو رواية **الحيّ اللاّتيني** عام ١٩٥٣، وظلّ تأثيرُها واضحًا في إنتاجه التالي المجموع في **الدمع المرّ** عام ١٩٥٦ وفي المجموعتين الأخريين المذكورتين سابقًا.

وقد رأيتُ أن أضمّ المجموعات الثلاث الأخرى في كتاب واحد كذلك، بحيث يجد القارئ مجموعَ إنتاجي القصصيّ حتّى الآن في هذين الجزءيْن اللذين يضمّان زهاء خمسين قصّة.

أمّا الإنتاج الرّوائيّ، فقد آثرتُ أن أُبقي كلًّا من مراحله الثلاث مستقلًّا، وهو **الحيّ اللّاتينيّ** و**الخندق الغميق** و**أصابعنا التي تحترق**، بالرّغم من أن بعض الدّارسين يعتبرونه ثلاثيّة متكاملة.»

وربّما كان من المفيد هنا لمؤرّخي الأدب أن أذكر أنّي نشرت في مجلّة **الصيّاد** قبل نشر مجموعتي الأولى **أشواق** عددًا من القصص القصيرة بين ٩٤٣ و١٩٤٨. ولا ضير في أن أثبت هنا نصّ إحدى هذه الأقاصيص وهي بعنوان «الشعر المسرّح»(١) لإطلاع القارئ على إرهاصات الفنّ القصصيّ عندي:

(١) مجلّة الصيّاد، العدد ٩٩، ٣ ك٢، ١٩٤٦.

الشعر المسرّح

ربع ساعة مضى عليه وهو يسرّح شعره؛ ويثنيه، ويرسله إلى الوراء بتأنٍّ وتؤدة. . . وكان بين حين وآخر يتراجع خطوتين إلى الخلف، ثمّ ينظر إلى شعره من خلال المرآة، زاويًا ما بين عينيه، محدّقًا بضع دقائق، كالرسّام حين يفرغ من طرس الرّسم، يرنو إليه حينًا يستجلي نقائصه قبل أن يضع الرِّيشة.

ولكنّه كان دومًا يطلب المزيد من التنسيق والتجميل، فيعود إلى المشطّ يُمِرّه على شعره عودًا على بدء، ولا يكفّ عن عمله إلاّ حين يحسّ بألم في ذراعه، من فرط ما راحت بالمشط وجاءت!. . حينذاك يعتقد أنّ شعره قد سُرِّح أجمل تسريح، فيشدّ ربطة عنقه، ويتقدّم من الباب يبغي الخروج، وإنّ عينيه مازالتا معلّقتين بالمرآة!. .

وغادر منزله يمشي على هون، يحرص على ألاّ يسرف في الحركة، ويهتمّ بالغ الاهتمام في ألاّ يميل رقبته ذات اليمين أو ذات اليسار، خشية أن ينزاح شعره عن موضعه، فيتبعثر أو يتناثر!

وكان يعتقد أنّ جمال الشاب، يتعلّق إلى حدّ كبير بتسريحة شعره، وأنّ استلفات النظر. . . نظر الفتيات والسيّدات. . . ينتج غالبًا عن الشعر وعن الطريقة التي نسّق بها. . .

وكان يحشد في خزانة مرآته أصنافًا كثيرة من الدهان والزيوت والعطور من أحدث واردات أوروبا، يريقها على شعره، فيلمع ويبرق، ويسهل تمشيطه، ويزداد رونقه. . .

غير أنّه لم يكن يستقرّ على تسريحة واحدة، وكان دأبه كلّ حين من الزمن أن يغيّر النسق ويبدّل الشكل. . . فتارة يجعل الفرق في وسط رأسه، وتارة في الجانب الأيمن. وطورًا في الجانب الأيسر، وأحيانًا أخرى يحمل الفرق فيرسل شعره إلى الوراء، ويسكب عليه مادّة كيماويّة تجعله جامدًا مستقرًّا. وظلّ على حيرة ردحًا من الوقت طويلاً، تهمس شفتاه في أذنه: هذه التسريحة غير جميلة. . . إنّها لم تفتن أحدًا من الفتيات. . . وعليك أن تغيّرها صباح الغد! ويؤمن بهمس شفتيه، فيغيّر شكل شعره في صباح اليوم التالي، ويستعين بالصحف والمجلاّت، وبصور الممثّلين وغير الممثّلين، يقتبس تسريحات شعورهم! . . . إلى أن اطمأنّ أخيرًا وركن إلى نسق جديد، حقّقته له مكواة إحدى المزيّنات. . وأحسّ بأنّ شعره يستلفت كثيرًا من الأنظار، وبأنّ الشبّان يعجبون به قبل الفتيات. . ولم يكن في شكّ من ذلك: فقد سمع بأذنه منذ أيّام فتاة جميلة تشير إليه بطرف عينها وتقول لرفيقة لها: انظري شعره! ورأى بأمّ عينه تلميذة رائعة الجمال، ترنو إلى رأسه بإعجاب. . .

بيد أنّه مع ذلك كلّه، كان يحسّ بفراغ كبير في نفسه وقلبه. . . ماذا؟ فتاة تراه، فتعجب بجمال شعره، أو بجماله، لحظة واحدة. ثمّ ينتهي كلّ شيء، حين تغرب عن نظره، أو يغرب هو عن نظرها! إنّ فتاة واحدة لم تبتسم له حتّى الآن، ولم يشعر طوال حياته بنعمة تلك العاطفة، عاطفة الحبّ، تختلج في صدر إحدى الفتيات. . . فتقبل عليه تبثّه مشاعرها ولواعجها من حبّه!

وخرج سامي ذات أصيل بعد أن حلق ذقنه، ولبث ربع ساعة في تمشيط شعره، وارتدى من ثيابه أجدّها وآنقها... كان يشعر في ذلك الأصيل الربيعيّ الرّائع أنّه سيقوم بمغامرة سعيدة تضفي على نفسه البهجة والحبّ والحبور...

وسار في الطريق يتيه ويزهو، ويحسب أنّ النّاس يرمقونه بإعجاب وفتنة. واستقلّ الترام وهو يقصد أن يتنزّه على شاطئ البحر. ولم يجد مقعدًا فارغًا يشغله، فظلّ واقفًا ينظر إلى شعره من خلال زجاج النافذة، ثمّ يُمِرُّ عليه يده بتمهّل ورفق... وخيّل إليه أنّه كان في تلك الساعة جميلاً بالغ الجمال!

وشعر حوله بازدحام الركّاب، وفجأة وقع نظره على فتاة فارهة الحسن ترتدي ثوبًا أحمر، وتشقّ طريقها بجهد وجهة الباب بغية النزول... وحين بلغت موضعه، استحال عليها أن تتقدّم خطوة أخرى من فرط الازدحام، فرفعت ذراعها تودّ أن تسهّل على نفسها السّير...

وأحسّ هو بذراعها تضغط رأسه وتحرّك شعره... وسرعان ما شعر بسورة من الغضب تتملّكه، ورفع يده ينحي بها ذراع الفتاة بقسوة، ثمّ يمرّها على شعره، فإذا هو مبعثر متناثر، مغيّر الأوضاع...

وما هي إلاّ لحظات، حتّى قال بلهجة غاضبة حانقة... وقاسية:

- انتبهي... وكوني لطيفة، وصاحبة ذوق يا...

ولم يتمّ جملته، بل لبث ينظر إليها، وقد التفتت نحوه،

وأنشأت ترشقه بسهام حادّة، وتحدجه بنظرات شزراء. . . ثمّ إذا بها ترفع يدها إلى رأسه، وتروح تبعثر شعره، وتقلّبه، وترسله في كلّ صوب. . .

وحين شاء أن يقذفها بجارحات الألفاظ، سمعها تقول بصوت عذب رقيق:

- صدّقني يا سيّدي، أنّك بهذه الصورة، أجمل، وألطف، وأذوق. . .

وسرعان ما أحسّ بالغضب يتلاشى في نفسه، والحنق يزول، وإذا به فجأة ينظر في زجاج النافذة، ويحدّق عبرها في شعره، فيداخله، لأوّل مرّة، إحساس شديد من الاطمئنان والسّرور. . .

والتفت ثانية إلى الفتاة، فرآها توشك أن تهبط من الترام، وتنحي إليه بصرها وتبتسم ملء فيها وهي تنظر إلى شعره. . . وبادلها، هو، بسمة صادقة تحوي الحبّ والجذل والحبور جميعًا.

ومنذ ذلك اليوم، لا ينظر سامي إلى المرآة إلاّ ليرى خلالها شعرًا مبعثرًا منثورًا في كلّ جانب. . .

قصّتي مع سعيد تقيّ الدِّين

كانت مقالتي «حول كتاب **نخب العدوّ**» في جريدة **بيروت**[1] فاتحة صداقة عميقة بيني وبين الأديب اللّبناني المعروف سعيد تقيّ الدِّين، الذي لم أكن أعرف عنه إلاّ أنّه هاجر إلى الفيليبين منذ سنوات طويلة، وجمع من التجارة مالاً وفيرًا، وأنّه يتأهّب للعودة إلى الوطن.

كانت المقالة كلّها تعبّر عن إعجابي الشديد بهذا الأديب الكبير، وإنْ كنت أخذتُ عليه بعض الملاحظات في ما ورد في مقدّمته للكتاب، وأهمّها قوله: «النقد فنّ زائف ومهنة طفيليّة... لأنّه يوهم صاحبه ولو ضمنًا بالتفوّق على المنقود.»

ولم يمضِ على مقالتي سوى أقلّ من شهرين حتّى أرسل لي سعيد تقيّ الدِّين رسالةً فيها الكثيرُ من المحبّة والإطراء، لدرجة أنّه تراجع عن قوله «النقد فنّ زائف ومهنة طفيليّة» وهو ما كنتُ قد أخذتُه عليه في مقالتي الآنفة. ولا أُنكر أنّي شعرتُ بفرحة غامرة وأنا أقرأ كلمات أديب كبير كسعيد تقيّ الدِّين، فأخذتُ الرّسالة

---

(١) جريدة **بيروت** ١٥ تشرين الأوّل ١٩٤٦.

وتوجّهتُ إلى مكتب جريدة **بيروت**، طالبًا من الصديق محيي الدِّين النصولي نشرها. فنُشرت الرّسالة في الجريدة بتاريخ ١٦ كانون الثاني ١٩٤٦.

«مانيلا ٢١ كانون الأوّل سنة ١٩٤٦

أخي سهيل

أخاطبكَ باسمكَ عاريًا عن الألقاب، إذ إنّي شعرت بقربى تربطني بك بعد قراءة نقدك الرّائع في جريدة **بيروت** لـ «نخب العدوّ.» ولو أنّه أعطي لي قبل اليوم أن أطّلع على مثل هذا النّقد لتردّدتُ في قول «النّقد فنّ زائف ومهنة طفيليّة.»

كانت كلمتك مخْلصة فطنة. وإنّي لم أقرأ في الذي نشر عن «نخب العدوّ،» وفي الكتب الخاصّة التي وردتني، شيئًا يمكن أن يقاس بعمق تفكيرك. فسَلِمَتْ يداك.

كان بحثك بالرّواية بحكم ضيق ذينك العمودين مقتضبًا. ولكنّه كان بحثًا نزيهًا، يفيض طلاوةً، ويُظْهر ثقافة واسعة، يَشْعر القارئ منه أنّ صاحب البحث يتكلّم في موضوع يفهمه. أكتب لك بعد منتصف اللّيل، وفي رأسي مشاكلُ عدّة، منها هذه الأربعة آلاف سرير التي اشتريتُها من مخلّفات الجيش، وحوالةٌ مرفوضة من زبون، ورجفةُ سوق الأقمشة بسبب قرب وصول شحنات يابانيّة. أسْرد هذا لأعتذر عن تشويش قد يبدو في هذه الرّسالة، ولكنّي أودّ أن أؤكّد لك أنّ إعجابي بنقدك لم يكن سببُه أنّه طغى المديحُ عليه. وبعد فهل تسمح لي

ب counter - attack.[1]

أ ـ سندش، وسندش: هذه «تقريقة» على الأستاذ إسعاف النشاشيبي والمدرسة اللّغويّة البالية التي يمثّلها. أراك لم تعترض عليها حين رددتُها إلى أصل عربيّ في كتاب موهوم اسمه **الحواشة العزقوليَّة**، ولكنّك اعترضتَ على غير كلمات لأنّي لم أردّها إلى أصلها العربيّ. من الذي أعطى الأقدمين امتيازًا حرمنا من اختراع الكلمات؟ أقول إنّي أستغرب أن أرى رجلاً له أدبُ سهيل إدريس يُنْكر علينا حقّ خلق كلمة نحتاجها.

ـ أمّا «عتليت» فهي كلمةٌ أنا فخور بها. عندنا رياضة روحيّة، رياضة «Athletics» ورياضة أو رياضيّات «Mathematics». يلزمنا كلمة، وأعتقد أنّ صدى كلمة «عتليت» يفي بالحاجة.

ـ «تطربش» لم أخترعها بل دوّنتها.

ـ «تمحدل» أعتقد أنّها لن تَثْبت على الدّهر لأنّها كلمة جبليّة.

ـ «سرغس» قد تموت لأنّها كلمة بيروتيّة. «حلقظ» و«تعذلب» لم أوفّق بهما. وأعتقد أنّه لو أنّ بين يديّ الآن قاموسًا عربيًّا لكنت أحوّر هاتين الكلمتين إلى لفظتين تُستحبّان. ولكنّه يلزمنا ترجمة day - dreaming.[2]

ـ «الساديّة»: أعتقد أنّها اشتقاق موفّق لـ sadism.

ـ «الغرور»: لقد أصبتَ في قولك إنّ في الفصل

---

(١) هجوم مضادّ.

(٢) حلم اليقظة.

الأوتوبيوغرافيّ غرورًا. أتدري لماذا؟ لأنّي كتبتُ تلك الرّواية في أتعس أيّامي. ولقد أثارت الفاقةُ، وهَيَّجَ ازدراءُ النّاس لي، كلَّ ما في نفسي من قوّة مقاتلة. كان ذلك الغرورُ من قبيل تشجيع نفسي والبهورة. وأصارحك أنّه لم يستقرّ الغرور بي إلى ثقة بالنّفس، حتّى رأيتُ إجماعَ النّاس على الإعجاب بالكتاب.

ـ تقدمة الرّواية: لم تكن للدكتور نجيب، بل إنّ دور «الدكتور نجيب» قدّمته للدكتور المرحوم نجيب الصليبي.

ـ «ولعلّ المؤلّف شاء ألاَّ يرهق القارئ في تلمّس خصائص أبطاله... إلخ»، عدا عن ملاحظتك، كتب لي أخي بهيج شيئًا في هذا الصدد. فالذي أودّ أن أوضّحه هو أنّ هذه السّير كُتبتْ للممثّل لا للقارئ. أردتُ للممثّل أن ينسجم بدوره ويتلاشى به، ولم أجد أيسر من الوصول إلى تلك الغاية من أن أسرد للممثّل حياةَ الدور كما تخيّلتُه وعايشتُه. أشكرك على إصلاحاتك اللّغويّة. وأعتقد أنّه من الضروريّ أن تدفع مطبعة «الكشّاف» غرامةً ماليّةً على كلّ غلطة نحويّة تظهر في كتاب تطبعه.

في السنة القادمة سيظهر لي كتابان، أحدهما مهزلة في فصل واحد والثاني مسرحيّة كبرى. بعد هذا سأنقطع إلى الإنكليزيّة.

تأكّد أنّي فرح جدًّا بأنّي اكتشفتُكَ. تقبّلْ منّي شكري الحارّ وإعجابي الصحيح.

سلمت لأخيك

سعيد تقيّ الدِّين

علي فوقة: لماذا أَبَحْتَ لنفسك استعمال «كوميديا» وأنكرتَ عليّ استعمال «تطربش؟»

* * *

في مطلع العام ١٩٤٧ صدرتْ مجموعتي القصصيّة الأولى **أشواق**، فأرسلتُ نسخة منها هديّةً إلى سعيد تقيّ الدِّين الذي سمع بالمجموعة قبل أن تصله، فأرسل إليّ رسالة تحذيريّة من أنّه سيكون قاسيًا في نقده لها. وفي الرّسالة يروي حواريّة بين الجدّ وحفيده أسماها «حكاية سهيل إدريس كما رواها سعيد تقيّ الدِّين لحفيده.»

وكما فعلتُ في المرّة السّابقة، قمتُ بنشر الرّسالة في جريدة **بيروت المساء** في ٣١ آذار عام ١٩٤٧:

«أخي سهيل!

تفهم من الحكاية التي أُرفقها بهذا الكتاب أنّ **أشواق** لم تصلني، وسأسرع بإبداء رأيي بكتابك ساعة أقرأه.

غير أنّي أحذّرك أنّي سأكون قاسيًا بالنقد لأسباب منها:

١ ـ أنّك من الحيّ المعادي: حيّ النَّقَدة.

٢ ـ أنّك أصبحتَ لي صديقًا.

٣ ـ أنّه يُنتظر من الشّخص غير العادي شيءٌ غيرُ عاديّ. ولئن شئت أن تنشر هذه الحكاية، ففي عنقك جريمةُ كلّ غلطة نحويّة، أو صرفيّة، أو إملائيّة. فإنّي أعترف لك أنّ الذي أعرفه عمّا تفعل

ـ مثلاً ـ كان وأخواتُها وصار وأخواتُها هو من قبيل الشائعات لا الحقائق.

يدي على قلبي.

سجّلْ لي أنّي أوّل من استعمل هذا التعبير، بدلاً من «السلام» أو «أشواق.»

أخوك
سعيد تقيّ الدِّين

حكاية سهيل إدريس كما رواها سعيد تقيّ الدِّين لحفيده

كنتُ في مساء العمر، في عشيّة ذلك النهار المزمهرّ من شتاء ١٩٨٤، وقد غطّت الثلوج مدينة «صهباء» اللبنانيّة، إذ أفقتُ هلعًا من رجّة على سطح البيت، فانتفضتُ صائحًا «ما هذا؟!» أجابني حفيدي ضاحكًا: «أكلّما حطّت على سطح البيت طائرة ذُعرتَ، يا جدّاه؟! هذا أبي عائد من ألاسكا. والآن وقد استفقتَ، هلاّ رويتَ لي حكاية وعدتني بها هذا الصباح، حكايةَ الرّجل الذي حاول القفز من قمّة إلى قمّة، حكاية سهيل إدريس؟»

قلت: يا بنيّ! كان جميلاً ذلك العام عام ١٩٤٧، وكنتُ في الشرق الأقصى أتهيّأ للرجوع إلى هذه الجنّة.

وكان سهيل في لبنان قد بنى مسكنًا على ذروة قمّة. وكان

النّاس يحملون إليه الجديد من المؤلّفات فيجيل في نظره بعضَها ويقرأ البعض الآخر، ثمّ يدعو إليه الجماهير، فيحدّثهم عمّا قرأ فيَمْدح هنا وينتقد هناك، وهو يقيس بالمتر والذراع ويزن بالرّطل والكيلو، يتناوب المكرسكوب والتلسكوب الجلوس على أرنبة أنفه، وفي بعض الأحيان ينفعل فيرمي بالموازين والمقاييس، والنظارات، ويصرخ: «هذا كتاب جميل!»

- ألم يكن في بعض الأحيان يبصق كما رأيتُكَ تفعل البارحة حينما جاءك البريدُ بنسخة من...

- لا يا ولدي! في عام ١٩٤٧ كان أدباؤنا يبصقون في مناديلهم وفي عزلة من النّاس. كانوا مهذّبين...

- ومن هم غير المهذّبين؟

- من هم في عمرك أو عمري!

وكان هذا الرّجل هنيئًا في عيشه، يرى النّاس يشيرون إلى صرحه لئن مرّوا به، ويسمع قولهم: «هذا قصر سهيل إدريس بناه على قمّة «النقد.»

وفي ذات يوم أدار نظره فيما حوله، فرأى ذروات غير ذروته، فنزع سترته وشمّر عن ساعديه، وأحكم شدّ حذائه، وقفز إلى القمّة المجاورة، قمّة «القصّة.»

- وما الذي حدا به إلى تلك القفزة، وقد كان سعيدًا حيث هو؟

- إنّ النّاس يا بنيّ يقفزون من القمم لأسباب شتّى. فالرّجل توّاق أبدًا إلى ما ليس يملك. أنظرْ إلى أبيك وهو التاجر الماهر كيف احمرّ وجهُه كبرًا أمس، إذ قال له صديقه إنّ له

منطقَ المحامي. واسمعْ رئيسَ مجلس الشيوخ الأميركيّ يتباهى بأنّه أمير الطبّاخين. من يزدهي بشهادته الجامعيّة غير الجاهل؟

- أكان سهيل إدريس دعيًّا؟
- لقد قاطعتني قبل أن أوفي على ذكر الأسباب التي تهيب ببعض النّاس للوثوب من القمم. إذ إنّ بينهم مَنْ فَقَدَ حاسّة التناسب، فيخطئ بتخمين المسافة بين مكانه وبين مطمحه. وآخرون يريدون الغمار حبًّا بالغمار. وغيرهم أَلِفَ النعمةَ فتبرَّمَ بها. وسواهم يرى في الجبل المقابل حقلاً لمغوله.

فقاطعني حفيدي ثانية سائلاً:

- قبل أن تَهرم، هل كنتَ يا جدّاه حسودًا؟
- حسودًا؟! ألم أقل لك إنّ سهيل كان صديقي؟
- ألم تقل لي إنّ الحسد يكون على أشدّه بين الأصدقاء؟
- ألم أقل لك كذلك إنّ بين النّاس مَنْ له جنّية تحرسه، ومن شُدّت نفسُه إلى رقّاص، ومن جنّح الإلهامُ قدميه، فمن السهل عليه الوثوب من قمّة إلى قمّة؟
- وهل بلغ صديقُك القمّة الثانية سالمًا؟
- قلتُ لك يا ولدي إنّني كنتُ أتهيّأ لهجر الشرق الأقصى. ولم نكن في تلك الأيّام نتبادل الرّسائل بالصواريخ كما نفعل اليوم، بل كانت الرّسائلُ المستعجلة تُزجّ في بطون الطائرة، وغيرُ الرّسائل المستعجلة ومنها الكتب، تُرْسَلُ في البواخر. وقد جاءتني رسالةُ صاحبي بالطائرة تقول إنّ مؤلّفه **أشواق** في طريقه إليّ، فدهشتُ وبهتُّ، وذَكَرتُ النابغين الذين هلكوا في

مثل تلك الوثبة ـ أولئك الأدباء العالميِّين الذين طالما ذكرتُ لك أسماءهم، ورحت أضيء الشموع وأبهظ النذور، وأتمتم الدعوات. وحقًّا لم يعجبني اسم الكتاب **أشواق**.

ـ وهل العنوان من الأهمِّيَّة بحيث يستحقّ النقد؟

ـ العنوان في غاية الأهمِّيَّة: يجب أن يكون جذّابًا غير عاديّ. ليته سمّى مؤلّفه «بحيرة تلتهب» أو «فيل في ثقب فارة» أو «طلع الفجر يا طنّوس» أو...

ـ أو شيئًا جميلاً غير عاديّ مثل «نخب العدوّ» أو «الثلج الأسود» أو «لولا المحامي»...

ـ صدقتَ يا ولدي.

ـ جدّي...!

ـ حبيبي!

ـ تصبح على خير!

ـ ألا تريد أن تسمع قصّة سهيل إدريس؟

ـ كلّما ابتدأتَ بحكاية تنتهي بالتحدّث عن نفسك، ألا تَضْجر من الحديث عن...؟

ـ أبدًا. «أنا» الدنيا «وأنا» الحياة، ولستَ أنتَ ولا سهيل إدريس بالأمر الذي آبه له إلاَّ بقدر ما أنتما شطرٌ من نفسي.

فاتني أن أخبرك أنّ هزّة جذل ملكتني إذ وافتني رسالتُه بأنْ ظَهَرَ له مؤلَّفٌ قصصيّ. فرحٌ ساديّ كمن رأى قاضيًا طال أمدُ جلوسه في صدر المحكمة، يقتعد قفصَ المتّهمين. وطربتُ أنّ فتى له دماغُ مثقّفٍ نيِّر هَجَرَ قمّةَ النقد؛ ففي الأدب، النقدُ ـ يا بنيّ ـ هو

مهنةُ مَنْ ليس له مهنة. ونحن بالإنتاج نقتات ونقوى.

ولقد ذكرتُ لك أنّ خبر صدور الكتاب جاءني قبل أن أضع يدي على الكتاب، فأقف هنا، وتصبح على خير.

ـ جدّي! لقد سمعتُ الدكتور يُسرّ في أذن أبي أنْ قد تقضي نحبَكَ في غفوتك. فلئن أتاك حتفُكَ في هذه اللّيلة فمن يقصّ عليّ بقيّةَ الحكاية في الصباح؟ وكيف أقوى على التثبّت من أنّ وثبة سهيل إدريس كانت موفّقة؟

قلت: يا بنيّ اقرأ الكتاب.

أجابني حفيدي: أكاد أن أكون أمّيًا، إذ إنّي لم أُنهِ دراستي القراءة إلاّ في الصَّيف الماضي. فهل في مقدوري أن أفهم **أشواق**؟

ـ إن لم تفهم **أشواق** فاعلمْ أنّه ليس بمجموعة قصصيّة وأنّ مؤلّفه وقع دون مرماه.

ـ وكيف أدري أنّه «كتاب جميل» وأنا لا أعرف الوزن لا بالرطل ولا بالكيلو، وما أدري الفرقَ بين المتر والذراع، وليس في بيتنا تلسكوب ولا مكرسكوب؟

ـ أَتَذْكر انفعالَكَ لمحةَ التفّتْ أصابعُكَ على الضفدع في بركة الجيران؟

ـ نعم.

ـ وحنقَكَ حينما عصاك التقاطُ الجندب القفّاز؟

ـ نعم.

ـ وبكاءَكَ حينما مات كلبُكَ الأسود الكبير؟

ـ نعم.
ـ واهتزازَكَ إذ رقص ضُيوفنا على ألحان راديو سان فرنسيسكو؟
ـ نعم.
ـ لئن شعرتَ وأنت تقرأ **أشواق** بمثل تلك الرّعشات، فاعلمْ أنّ سهيل إدريس بلغ القمّة الثانية سالمًا.

وساد سكون بان خلاله «مورفيوس،» فمدّ أنامله الناعمة إلى جفنَيّ. وما إنْ غفوتُ حتّى أفقت مذعورًا للمرّة الثانية أسمع صوت حفيدي قائلاً: «سؤال أخير يا جدّي ـ حينما أنرتَ الشموعَ، وأبهظتَ النذورَ، وتممتَ الصلواتِ، هل فعلتَ ذلك تمنّيًا لنجاح سهيل إدريس؟»

فاعتصمتُ بالشخير. وذكرتُ ذلك العامَ الجميلَ ١٩٤٧ حين لم يكن على سطح البيت في لبنان إلاّ المحدلة، وحين كان الأحفاد يوقّرون أجدادهم ولا يحرجونهم بأسئلة خبيثة.

سعيد تقيّ الدِّين»

إلاّ أنّ ما أخذه على هذه الرّسالة الصديق المشترك لي ولسعيد، محيي الدِّين النصولي، من أنّ القارئ يَفْهم من رسالة سعيد تقيّ الدِّين أنّه قرأ المجموعة ولم يشأ أن يفصح عن خيبة أمله فيّ كقصّاص، جعلني أكتب لسعيد رسالةً جديدةً، أو ردًّا على رسالته، نشرتها في **بيروت المساء** بتاريخ ٣١ آذار سنة ١٩٤٧، أيْ في اليوم الذي نُشرتْ فيه رسالةُ سعيد، وهذا نصّها:

«أخي سعيد

تلقّيتُ رسالتك المؤرّخة في أوّل آذار فسعدتُ بها واغتبطتُ، سعادتي برسالتك الأولى. فقد أصبحتَ من أعزّ أصدقائي وآثرهم إلى نفسي، على الرّغم من أنّني لم أعرفْكَ ولم أجتمعْ بك من قبل. ولكنْ حسبي أنّي عرفتك في كتابك **نخب العدوّ** وصادقتُكَ من رسالتيْك إليّ.

ولقد أبلغتني في هذه الرّسالة أنّ كتابي **أشواق** لم يصلك بعدُ، وأنّك ستسارع إلى إبداء رأيك فيه ساعة تقرأه، وستكون قاسيًا في نقده. ولستُ أراني في الحقّ إلاّ شاكرًا لك هذه الرّغبةَ، رغبةَ القسوة في النقد؛ فأنا، منذ أصدرتُ كتابي، متحرّقٌ لأن أرى مَنْ يقسو عليّ في نقده، فما أجد إلاّ مقرّظين لا ناقدين، مع احترامي وتقديري للذين كتبوا عن **أشواق!**

ولكنّي ـ يا سعيد ـ أراك تستكثر عليّ كتابة القصّة، وتخشى عليّ من قفزة بين قمّة وقمّة، كما حدّثتَ حفيدك ذلك النجيب إذ رويتَ له حكايتي كما فهمتَها. وأحسب أنّ حفيدك هذا سيكون له شأن، لأنّه ذكيّ وطُلَعة. شأنك تمامًا، ولكنّي أرجو أن لا يكون في مثل خبثك! ولكنْ لعلّك تعجّلتَ الأمور، حين قصصتَ عليه حكاية صاحبنا. فقد جعلتَه في حيرة شديدة من أمر بطل حكايتك هذا. وما من شكّ في أنّك ـ أنت نفسك ـ كنتَ محتارًا في أمر هذا الذي لا تعرف عنه إلاّ أنّه نشر يومًا نقدًا قصيرًا لكتابك الأخير. فهل كان ذلك كافيًا لأن تعرفه حقًّا معرفةً تبرّرُ لك أن تجعله بطلاً لقصّة أو لحكاية من وضعك؟

أنا أقول إنّه كان بوسعك أن تتريّث حتّى يصلك الكتاب فتقرأَه وتعرفَ بعضًا من شأن صاحبه، فترويَ لحفيدك الذكيّ روايةً أقربَ إلى الصحّة وألصقَ بالواقع.

ولكنّ صديقك وصديقي الأستاذ محيي الدِّين النصولي صاحب **بيروت** يزعم أنّك قد تسلّمتَ الكتاب، وقرأتَه، ولم تشأ أن تبدي فيه رأيك إلاّ رموزًا وأحاجيَّ، وأنّك عمدتَ إلى وضع هذه الحكاية لتسجّل بعضَ خيبةٍ في نفسك، يمازجها إنكارٌ عليّ أن أتطلّع إلى ما لستُ أملك، وأنشدَ ما ليس في مكنتي أن أبلغه. ومن جميل الصدف أن يوافق الكاتبُ الساخرُ الأستاذ المشنوق على رأي زميله الأستاذ النصولي ـ وهذا شيء نادر!

على أنّي لم أقتنع بما ذهب إليه الصديقان لأسباب:

أوّلها ـ أنْ ليس في رسالتك ما يبرّر مثلَ ذلك، بل إنّ إشاراتك جميعًا تدلّ على أنّ الكتاب لم يصلْكَ وأنّكَ لم تقرأه؛ فاعتقاد بعضهم بخلاف ذلك تحميلٌ لكلامك أكثرَ ممّا يحتمل.

وثانيها ـ أنّك صريح جدًّا، ولاسيّما مع أصدقائك الذين ليس عهدُك بصداقتهم بعيدًا... أمثالي! فليس ما يمنعك من مهاجمتي، لو أنّك قرأتَ الكتاب ولم يعجبك.

وثالثها ـ وهو الأهمّ، أنّك أديب مغرور بأدبه وقصصه. وهذا الغرور ينبغي أن يدفعك دفعًا إلى مصارحة غيرك من الأدباء ـ ولا سيّما في ميدانك ـ بأخطائهم ونقائصهم، إرضاءً لنزعة غرورك، وهذا لم يحدث. غير أنّي أسارع فأقول: إنّي لا أنكر عليك هذا الغرور ولا أستكثره، فقد سبق أن أشرت إلى ذلك وأشدت به.

فأنت لستَ دعيًّا، لأنّك تملك ما يدعو إلى الفخر والاعتزاز والإدلال. . . وإلى الغرور أيضًا! ولعلّ تعجّلك بإرسال هذه الرّسالة إليّ، تعبّر فيها عن خشيتك من أن أكون وقعتُ دون مرماي، وقصّرتُ دون مطمحي، يتّصل من قريب أو بعيد بهذه النزعة التي تملأ نفسَكَ.

وإذن فأنا مُوقن أنّك بعثتَ إليّ برسالتك قبل أن تقرأ كتابي، وعلى هذا الأساس أودّ أن أذكر لك ـ أو لحفيدك النجيب ـ حقائق كان يسعى لمعرفتها كلَّ السعيِ، فلا يجد ما يرضي به فضوله.

لقد ذهب جدُّكَ بعيدًا ـ يا بنيّ ـ حين روى لك أنّ ذلك الكاتب قد بنى على ذروة قِمّةٍ من قمم لبنان مسكنًا، هو قصر «النقد». . . فإنّ عهده بهذا الميدان قريب جدًّا، وهو لم يجمع بعدُ من المعدَّات، ولم يتوفّر له من اللَّبِنات، ما يجعله يقتنع بأنّ في وسعه بناءَ قصرٍ والسكنى فيه. إنّها ثلاثةُ أعوام فحسب، كان يحاول فيها أن يقرأ في بعض الكتب، يلتمس المتعة والفائدة، قبل أن يقصد إلى الدرس والنقد والتحليل. ثمّ خطر له أن يفيد من هذه المطالعة، فراح يسجّل ملاحظات كانت تَخْطر له بينما هو يقرأ الكتاب، وينشرها في مجلّة عزيزة على نفسه، هي مجلّة **الأديب**. ولكنّ هذه الكلمات ـ على هامش النقد ـ لم تكن يومًا ميدانه الأصيل، ولم يعتبرها أحدٌ من قرّائه، وقرّاءِ تلك المجلّة العزيزة، مجالَ إبداعه ودائرة فنّه. كان صاحبنا جالسًا على الجبل الثاني، ولا أقول «القمّة» الثانية، كما روى لك جدُّك. وكان هذا الجبل جبلَ «القصّة» بعينه. فهو منذ أن ولد، وُلد على ذلك السّفح،

وكان يصبو أبدًا إلى ارتقاء ذلك الجبل. وقد ظلّ يجدّ ويعمل، ويدرس ويطالع، ويستجمع أسبابَ الفنّ، ويستثير مشاعرَ النّفس، حتّى أتيح له آخر الأمر أن يبلغ مكانًا ما من هذا الجبل، فأصدر كتابَه الأوّل، بعد ثمانية أعوام انصرف فيها كلّها إلى هذا اللّون من الأدب. وظلّ يتربّص، تملأ الخشيةُ نفسَه أن يكون قد زَلَقَ أو سَقَطَ في حفرة، فتحطّم جسمُه وتبدّدتْ آمالُه هباءً، وطارت جهودُه شعاعًا.

لقد خُدع جدُّكَ عن نفسه، حين أراد أن يعتبر صاحبَنا ذاك جالسًا على قمّة «النقد.» فهو لم يحاول كما ذكرتُ لك إلاّ محاولةً يسيرةً في المطالعة وإبداءِ الرّأي على هامش النقد، بيد أنّ هذه المحاولة نفسها كانت محدودة جدًّا. فصاحبنا لم يتّخذ النقد مهنة، وإنّما كان يتناول الكتاب الذي يمتّ إلى ميدانه، ميدانِ القصّة، فيطالعه ليستفيد ويستزيد. غير أنّ ذلك لم يكن يمنعه من إبداء الملاحظات، فهو إذن لم يخرج من ميدانه. إنّها القصّة التي تهمّه وتعنيه. وخُدِعَ جدُّكَ مرّةً ثانية عن نفسه، حين تعجّب ودهش لدن بلغه نبأ ذلك الكتاب. فلو كان معنيًا بأدب بلاده، ولو كان متتبّعًا لإنتاج كتّابه وأدبائه، ما فاته أن يلاحظ أنّ صاحبنا هذا كان من أكثر الكتّاب القصصيّين إنتاجًا في فترة الحرب الأخيرة، بصرف النظر عن قيمة هذا النتاج. وإذن فإنّ جَدَّكَ كان مقصّرًا في رسالته كأديب. ولو أنّ صاحبنا لم يكن معتقدًا أنّه يفهم القصّة ويتذوّقها ما جرؤ على أن ينقد كتاب جدّك **نخب العدوّ** الذي ضمّنه أقاصيصَ جميلةً تبلغ حدّ الرّوعة أحيانًا.

وبعد، فهذه حقيقة أحببتُ أن أوضحها لك أيّها الحفيد اليقظ، وأحسب أنّك ستأخذها أو يأخذها جدُّكَ بعين الاعتبار ساعةَ يُصْدر حكمَه على باكورتي المتواضعة. وأرجوك أن تثق بأنّ اهتمامي بحكم جدّك وتلهّفي لمعرفة رأيه يفوقان اهتمامَكَ وتلهّفَكَ، لأنّ جدّك أديب قبل كلّ شيء، ولأنّه سيكون صريحًا بل قاسيًا كما قال، ولأنّه ليس حسودًا، ولو أنّه صديق، إذ إنّك رأيتَه غيرَ مرّةٍ ينير الشموع ويبهظ النذور ويتمتم الصلوات. وما أحسبها إلاّ دعواتٍ لي، لا عليّ.

بقي أن أدعوك إلى العناية بجدّك وإحاطته بجميع ضروب الاهتمام والرعاية، فهو يملك ثروة كبيرة.. ولستُ أقصد الثروة التي تقدَّر بالمال والدراهم، وإنّما الثروة الأدبيّة. ومهما يكن من أمر، فأرجو ألاّ تلهيه أشغالُه المادّيَّة عن أشغاله الأدبيّة. وعليكَ أنتَ أن تحثّه دائمًا على الإنتاج والكتابة. فجدُّكَ سعيد تقيّ الدِّين أديب بالدم والرّوح. وأنا بعدُ منتظرٌ رسالَتَه في نقد الكتاب، فعسى ألاّ يطول الانتظار.

سهيل إدريس»

بعد أشهر قليلة، وافاني البريد بمغلّف ثقيل حوى مقالاً طويلاً يقع في ثمان وأربعين صفحة، كتبه سعيد تقيّ الدِّين بأحرف كبيرة وأسطرٍ هابطة وخطٍّ لا قاعدة له. فدفعته إلى عبد الله المشنوق، رئيس تحرير بيروت ـ **المساء** فقرأه مستمتعًا ثمّ قال:

ـ ولكنّ المقال هجوم عنيف على مجموعتك، وبوسعك ألاّ

تنشره.

قلتُ: بل أنا أصرُّ على نشره.

وصدر المقال في جريدة **بيروت ـ المساء** بتاريخ ١١ آب ١٩٤٧، على صفحة كاملة من الجريدة. وأعترف هنا بأنّ نقد سعيد تقيّ الدِّين لـ **أشواق** قد خلّف لديّ آثارًا عميقة، وعلّمني كثيرًا. ولا ريب عندي أنّي أَفَدْتُ، واعيًا أو غيرَ واعٍ، من ملاحظاته النقديّة، وبدا ذلك واضحًا في مجموعتيّ التاليتين **نيران وثلوج** و**كُلُّهنَّ نساء**، وبدا أوضح في آثاري التالية من القصص والرّوايات. لا بل تعلّمتُ من سعيد الكثيرَ، وإنّي مدين له، قبل كلّ شيء، بتحرّر لغتي من كثيرٍ من الترادف والتقعّر والتغريب، وباكتساب فنّي القصصيّ، والرّوائيّ في ما بعد، شفافية الإيحاء ورمزيَّة الإيماء.

حول كتاب «أشواق»

مرحبًا سهيل!

هل سمعتَ بـ «حمّى الذهب،» تلك التي تُلهب وعيَ المصاب بها، فيجازِفُ بما فوقه وتحته مطّلبًا المعدنَ الأصفر؟

فَشَتْ تلك الحمّى في مانيلاّ عام ١٩٣٦، وكنتُ أنا من صرعاها. ولقد صحبتُ مهندسًا أميركيًا في رحلة إلى الغابات نفتّش عن الذهب، فكان المهندس يكسر الصخر بمعوله الصّلب الصغير، ويصوّب مجهره على الشظايا فيحدّق بها، ثمّ يهزّ رأسه

ويمشي. ومرّة إذ كنّا نأكل على ضفاف غدير، قفز المهندس وانتشل حصاة من الماء، وصوّب مجهره إليها، وراح يضرب بذراعيه على جانبيه فرحًا ويصيح كأنّه ديكٌ يصفّق بجناحيه:

- أُنظرْ. إنّ هذه الحصاة تحمل ذهبًا. لئن كان الذهب في الغدير فالذهب في الجبل. هذه الحصاة لم تمطرها السّماء، ولكنّها انشطرتْ عن صخورٍ بالذهب حبلى. قد تكون صخورُ التبر على بعد شبر منّا، وقد تكون على بعد ألف ميل. ولكنّ الذهب موجود بلا ريب. علينا أن نهتدي إليه.

في كتابك **أشواق** لم ألقَ منجمَ ذهبٍ ولا عروقَ تبْر، ولكنّي وجدتُ الكثيرَ - أقول الكثير - من الحصى حوامل الذهب. فهل تهتدي إلى المنجم في غدك؟ أو بعد عشرة أعوام؟ لا أدري! هذا سؤال لن يجيبه سواك.

إنّ غايتي في هذه الرّسالة أن أدلّكَ على أقصر طريق بين الحصى والمنجم. ولئن كان قد ساءك من الكتاب عدمُ رواج، أو فتورٌ من النّقَدَةِ النيّرين المخْلصين، فليس لأنّك عديم الغنى، بل لأنّ هذه الحصى حواملُ الذهب، لا يراها إلاّ المهندسون.

وإنّي الآن وقد استللتُ **أشواق** من «تزمين» بضعة شهور، أَشْغَفُ به منّي حين قرأتُه لأوّل مرّة. وهذا أصلب دليل على جودة عناصره.

ما هي القصّة؟ القصّة، كما أفهمها، هي حادثة غيرُ عاديّة محتملةُ الوقوع، تُسرد بأسلوب جذّاب سهل، وتنتهي بمفاجأة

حلوة معقولة. لئن وجدتَ هذا الوصفَ في كتاب ما، فلك أن تصَدّقني أنّه من قبيل توارد الخواطر، ولك أن تسيء الظنّ. بالطبع في وسعك أن تأتي بـ ٤٦٢ وصفًا آخر. لن أجادلك ولن أقاتلك، ولئن سحبتَ عليّ مسدّسَك. فأنا منهزم. هكذا أفهم القصّة، ولك أن تفهمها كما تريد. وإنّي أرى قصصك في **أشواق** أكثرها حوادث غير عاديّة، ولكنّها غيرُ محتملة الوقوع. خذ مثلين: فتاة تنتقي كلبًا تدلّله، لن تنهال عليه بهراوة غليظة كما فعلتْ فتاتُك في «هي وكلبها.» ومثل تلك الفتاة لم يكن في متناولها هراوات. . . كذلك لا أفهم لماذا رمت فتاةُ «بوارج» بنفسها منتحرةً في «راحة الضمير.»

أقرأُ في صحف بيروت أنّكم أقمتم للشيخ إبراهيم اليازجي حفلة. إنّي إخال اليازجي يحوم طيفُه فوق المحتفلين به ويقهقه هازئًا «لماذا هذه الحفلة؟» إنّ النثر العربيّ اليوم ـ هذه السنة ـ في أوجه. إنّ أيًا ممّن يَنْشر المقالات في **الأديب** أو **الصيّاد** لهو أغنى وأصفى في نثره من اليازجيين. وأنت، يا سهيل إدريس، جزلٌ، جميلُ العبارات، مليونارُ ألفاظٍ. ولكنّك، كأكثر كتبتنا، فقرُكَ في غناك. إذ إنّ هذه الثياب الأنيقة، من ألفاظٍ وتعابيرَ وعباراتٍ، تَصْرِفكَ عن ترويض جسدك، فتكتفي بجمالِ ما يعلوه من ثياب ولا تَطْلب في الجسم صلابَة عضلات.

خذْ هذا الازدواج المعيب الذي يكاد لا يتفلّت منه أيٌّ من كتّابنا. إنّي أنقل إليك بعضًا من عباراتك المزدوجة فيما أنا أقلّب صفحات كتابك: «خوالج النفس، ورغائب الرّوح» (ص ٨)؛

«أُطفئتْ عيناه فهو لا يبصر» (ص ١٠) ـ إذا أُطفئتْ عيناه فهو طبعًا لا يبصر؛ «. . . سرًا يستكن بين جنبيْ هذا الشاب، وينطوي في جانحتيه»؛ «فَرَقٌ وفزع» (ص ٩٩)؛ «مطمئنة إليه كلَّ الاطمئنان سعيدة به غاية السعادة» (ص ١٦)؛ «مِنْ حبٍّ وودٍّ وسرورٍ ورضى» (ص ٤٥)؛ «شذى وعطرًا.» (ص ٢٥)؛ رويْدَكَ! أراك انفعلتَ. تريد أن تقول لي إنّك لست من عبيد التقاليد، وإنّ الازدواج لا يَرْكب قلمَك. تريد أن تشرح لي الفرق بين «الاطمئنان والسعادة» و«الحبّ والودّ؟» قبل أن تفعل ذلك، هلاّ أفهمتني الفرقَ بين أن يَصْمت وأن يَسْكت؟ (ص ٥٦) غريبٌ أن لم يقم قبل اليوم ناقدٌ ـ فيما أعلم ـ ينادي بنا أَنِ اقتَصِدُوا بالكلمات واقتَطِعُوا هذه العبارةَ الثانيةَ التي هي في نثرنا في معظم الأحيان ترديدٌ للعبارة الأولى يُستغنى عنه، هي صدى السجع الذي مَرض به الأدبُ العربيُّ في أسقم أيّامه. (كان في وسعي أن أزاوجها: «وبلي به في زمن نحوله».)

وفضلاً عن الازدواج، فإنّي أراك تؤمن بأنّ أيّ كلمة غير مألوفة هي كلمة حبيبة. لماذا «تصرّمت» أيّام؟ (٢٧) أيُّ أجمل: «تصرمتْ» أو «مضت» و«ولّت» أو «فاتت» و«انقضت؟» ثمّ لماذا «زَجَيتَ» لدى صديقك في كيفون تسعةَ أيّام؟ لماذا «زجيتَ،» لماذا؟ ما عيبُ «قضيتَ» أو «صرفتَ» أو «أنفقتَ» أو «لبثتَ» أو «مكثتَ؟» ما عيب هذه الألفاظ غير أنّ النّاس كلّهم يفهمونها وأنّنا ربينا على خطإٍ أنّ البلاغة هي في كتابةِ ما يَصْعُبُ فهمُه؟

ولماذا تحدث الأمور في كتابك في «ذات أصيل» و«وأد

الضحى؟» ومَنْ هي هذه الفتاة البيروتيّة التي تريد أن تتعلّم الكمان ثمّ هي لا تزال «تتعثّر بأذيالها؟» (ص ٩) إذا كان في بيروت مثلُ هذه الفتاة، أرسلْ لي عنوانَها، فإنّي أريد أن أتبرّكَ بتلك الأذيال! ثمّ قل لي أحقًّا حينما صيّفتَ في بوارج كنتَ تطالع «إذا شرعتْ طيور الدوح تَصْدح؟» على علمي أنّ كلّ الطيور الصدّاحة في لبنان هَجَرتِ الدوحَ وعشعشتْ في قصائد بشارة الخوري!

تراكَ ذكرتَ أنّي وعدتكَ بنقد قاس؟ ربّما. وقد تكون أنت القاسي على نفسك، لأنّكَ بين فتى «يَصْمت ويَسْكت» وأيّامِ «زجيتَها» وأمورٍ تحدث في «ذاتِ أصيل» وفي «وأدِ الضحى» وبيروتيّةٍ «تتعثّر بأذيالها» ومطالَعَةِ «إذا شرعتْ طيورُ الدوح تَصْدح» ـ قد خلقتَ جوًّا مصطنعًا يوهم القارئَ لأوّل وهلة أنْ ليس هنالك من قصص ولا مواهب، بل إنّ أحد غلمان المنفلوطي يغامر بنشر كتاب!

ولئن آلمتْكَ هذه العبارة، فليفرحْكَ أن تنظر إلى نفسك في اللّحظات التي أعتقْتَ بها قلمَكَ من العبوديّة اللفظيّة. ما أجمل اللّذّة الكبرى «وشعرتُ بلذّة تَقْطر من أسناني» (ص ٧١) يا جميل! هذا أدب! وما أبدعَ وصفَكَ للفتى «ظَفَرَ بفتاةٍ وهي خجلة مستسلمة، وحين استقرّ بهما المقام نظر إليها وفي عينيه بريقُ النصر، وعلى شفتيه بسمةٌ متكبّرة، وإذا هي تغضي وتصرف نظرها عنه.» وحين علوتَ بقارئك إلى الأثير في «سراب. سراب» لقد بلغتَ الإبداعَ بأمر بسيط: إعادة لفظة عذبة (ص ١٢). وهاتِ لي كأسًا أَسْكر منها وصُبَّ لي فيها: «ليس يهمّني أن تحدّثني

عنكَ، فأنا أراك بملء عينيّ.»

ولكنّي أرى أنّي لم أدلَّكَ بعدُ على الطريق المختصرة، ولا أشرتُ إلى الحصى حوامِل الذهب. فلنبدأْ إذن الأمورَ من أوّلها!

عنوان القصّة عنوان القصّة، يجب أن يكون، عدا عن جماله، لغزًا. لم تكن موفّقًا في عناوين قصصك. لقد دنوتَ بـ «صراع» من النجاح. ولعلّ الخيبة في العنوان كانت على أوضحها بـ «تذكار ثورة.» وهذه القصّة هي أقرب إلى «مقالة» منها إلى قصّة. لقد سمَّيتها «تذكار ثورة» ثمّ أظهرتَ العكّاز تحت إبط الفتى. ومن غير أن تَمْنح الأيّامُ قارئك بشهادة جامعيّة من أكسفورد، أو يجود عليه كرم الذهب بأن يولد في «بعقلين،» يَفْهم من غير أن يقرأ الحكايةَ أنّ القصّة هي حكاية فتى جُرح في ثورة أو كُسرتْ رجله. حذار حذار أن يفضح عنوانُكَ قصّتَكَ!

لقد كان أبواك سليمَي الذوق إذ دعواك «سهيل،» وإنّ جدّك الأعلى كان موسيقيًا حين اختار «إدريس» له اسمًا. إنّ لك اسمًا موسيقيًا تُحْسَد عليه. فلتكن عناوينُكَ ألغازًا موسيقيّة. إنّني أسائل نفسي أكان جبران خليل جبران أصاب هذه الشهرة لو أنّ اسمه «قزحيّا مطانيوس بوغنطوس؟»

العبارة الأولى: أوّل عشرين كلمة من أيّ خطاب أو مقالة يجب أن تكون جذّابة تُلْصق عينَي القارئ بالكلمات فلا تستطيعان الزيغان عن الصفحة. لو أنّ نثرَكَ طُهِّرَ من منفلوطيّته لكان في هذه «الطلعات» نجاحٌ عظيم. إنّ ابتداءاتك جميلة قويّة فيها نفَسُ

الأديب الموهوب.

الموضوع تلاحظ أنّ مَنْ يحاول تعلّم سواقة الأوتوموبيل لا يبدأ بالزواريب. كذلك ترى أنّ البادئين من القصّاصين يُكْثرون من أحاديث الغرام، والموت، والانتحار. الحياة فيها غرام وموت وانتحار. ولكنّ أساطين الفنّ لا يَطْلبون المواضيع في الطريق العريضة الكبرى. وهم لئن عالجوا هذه المعضلات الأوّليّة، جعلوا لقصصهم «لفتات» غير مألوفة.

إنّ قصص **أشواق** هي من صالون الحياة، لا من زوايا غرفها.

العبارة الأخيرة في القصّة يجب أن تكون قنبلة ذرّيّة تنفجر بين عينَي القارئ جملةً قصيرةً حبّلها كلّها ديناميت. لو أنّ أحدًا قرأ عليّ عباراتك الأخيرة في قصص **أشواق** من غير أن يتلو القصص لقلتُ إنّ مؤلّفها قصّاص عالميّ. إنّ معظم حوامل الذهب وجدتُها في نهايات حكاياتك.

الصنعة ليس في الدنيا مَنْ ليس عنده قصّة. قليلٌ مَنْ يعرف كيف يرويها. خذ أيّ اثنين يخبرانك حكايةً ما. تقهقه للواحد، وتتثاءب للآخر، والحكاية هي هي.

أنتَ تَعْلم أنّ التاريخ ذَكَرَ العظامَ من جنود يُلْهمون رسمَ خطط المعارك، وآخرون تقْصر مقدوراتُهم على تنفيذ الخطّ. إنّما الجنديّ الخالد هو مَنْ يبدع في رسم الخطّة ويَحْذق تنفيذَها.

وفي القصّة يعوز الرّاويَ إمّا سليقةُ العبقريّ، أو ميكانيكيّةُ صناعة الدارس. وإنّي لأظلمكَ إنْ قلت إنّكَ عديم السليقة. أمّا الصناعة فلقد فتّشتُ عنها في كتابك فلم أجدها ولم أجد لها من أثر. هاكَ مثلاً في «نداء الأعماق»: حينما وضعتَ إصبعكَ مشيرًا إلى الموجة ثمّ أعدتَ الإشارة إلى الموجة ـ حينما فعلتَ ذلك فضحتَ نهايةَ القصّة. إنّ أيّ قارئ يدْرِك من توجيهك الأشعّةَ على الموجة أنّ القصّة ستنتهي بانتحار، ومتى فهم القارئ نهايةَ الحكاية، لم يعد هنالك من حكاية.

لقد صدقتَ حين اتّهمتني بأنّي أجهل محاصيلَ الأدب العربيّ في هذين العقدين. لذلك لا أعرف أيّ مكان يشغله «سليم بطّي» في هياكلكم الأدبيّة. فلقد جاءتني مجلّة **الأديب** بعدد منذ شهور فيه قصّة بقلم سليم بطّي. العدد ليس بين يديّ، وإنّي لا أَذْكر عنوانَ القصّة ولكنّي أقول لك إنّه يكفيني أن أقرأ هذه القصّة الواحدة لأَحْكم أنّ سليم بطّي قصّاص. إنّ تلك القصّة هي في مستوى ما يُنشر في Saturday Evening Post والتي يَقْبض مؤلّفوها عليها ٦٠٠ إلى ١٥٠٠ دولار. إنّما صاحبنا تعوزه الصناعةُ. إذ إنّه وقع في مثل الفخّ الذي وقعتَ فيه أنتَ. كان في قصّته قناةُ ماءٍ فسلّط عليها كلّ الأنور الكهربائيّة، وهكذا فَضَحَ قصّته فقتلها.

إنّ لبطّي جرأة المتجدّد، أو ثقةَ نفسِ المقتدر. إذ إنّه سرد حكايته بلغة سهلة التركيب وكلام مألوف. ولروايته انسيابُ النهر السائل بهدوء ـ ذلك الانسياب الذي يجب أن يلازم سردَ القصّة.

ألعنُ ما يَرْكب القصّاصَ هو «التدحرج.» وما دمنا نتحدّث عن قصّته، فخذْ نهايتها الجميلة إذ تلتفّ أصابعُ ذلك المُقعَد أو الأعمى على عنق النذل فتدقّها. نهاية جميلة غير منتظرة. هكذا يُنهي القصّاصون الحاذقون حكاياتهم. القصّاصون الحاذقون. أمّا «براهمةُ» القصّاصين فيجعلون لها نهايةً تَنْهض بتلك القصّة من الجميل العاديّ إلى الإبداع العبقريّ، وهم في ذلك لا يَشْردون عن وقائع الحياة أو حقائق العلم. ذلك المُقْعَد بين يديّ قصّاص عبقريّ، كان مشى. ولو لم أَخَفِ التطويلَ لأتيتُكَ بشواهد من الحياة، واستشهاداتٍ من البسيكولوجيا، أنّه في الأزمات الكبرى تَحْدث العجائب.

الصناعة هي أن تمشي بقرّائك إلى جهة مجهولة يعتقدون أنّها، مثلاً، طرابلس؛ وحينما تقف بهم في النّهاية ـ تلك الوقفة الجامحة ـ يتلفّتون فإذا هم في دمشق. كيف لم نفقه هذا؟ ما أسعدنا أنْ وصلنا إلى دمشق!

الصناعة هي أن تدسّ الحادثةَ التي تريد أن تستغلّها بين كثير من الحوادث بحيث تَرْسخ في عقلِ القارئ الباطنِ، من غير أن يَنْتبه إليها. ولكنّكَ حين تَرْجع إلى استثمار تلك الحادثة أو الصورة أو العبارة، تَقْفز تلك الحادثةُ أو الصورةُ أو العبارةُ من العقل الباطنيّ وتنسجم بما تريد أن تستغلّه.

حين تقوى على «الدسّ» المنسجِم في حادثة القصّة، تُعوزك خفّةُ أيدِي نشّالي مرسيليا، وذرابةُ بيّاعي الكرت پوستال في بور سعيد، ووداعةُ المُرَشَّحِين قبيل الانتخاب، ومراوغةُ ألف ثعلب.

التفاصيل في القصّة ومن عناصر الصنعة انتباهُكَ إلى التفاصيل. ذلك الأستاذ لم يحيِّ تلميذته بـ «بونسوار أيّتها الآنسة.» لقد قال لها إمّا «بونسوار مدموزال» أو «مساء الخير أيّتها الآنسة.» أحقًّا أنّ القرويّات في الجبل اليوم يبادئن المصيِّفين التحيَّة؟ وتلك الأمّ ـ هل جادت بتلك العبارة الخالدة عن الموجة على فراش الموت؟ ابتعدْ عن مثل هذه السذاجات. إنّ الناس لا يفوهون بالعبارات الخالدة على فراش الموت. خذ مهاتما غاندي وجلال زريق: إنّهما يفوهان بالعبارات الخالدة، ويأتيهما الوحي، في بيت الخلاء. إنْ لم تصدّقْ فاقرأْ سيرَة المهاتما، واسألْ جلال. هو منك على ضربة حجر. إنّي أعلم علم اليقين عن أحد رجالات لبنان في العهد الماضي، رجل ملأتْ صورُه وأحاديثُه الصحفَ والمنازل. أتدري ما كانت كلماتُه الأخيرة على فراش الموت؟ «آخ على صحن مهلبيّة!»

ومن عناصر الصنعة أيضًا أن تَخْلق في القصّة جوًّا حقيقيًّا. ذلك المعلّم في «ظامئات» وصفته بأنّه «فارع،» ولقد استعملتَ كلمة «فارع» لأنّها غير مألوفة، ولأنّها مثل «ساهم» هي موضةٌ كتابيّة في هذه الأيّام. لو كنتَ طليقًا من رقّ الألفاظ، لانتبهتْ فيك سليقةُ القصّاص، ونظرتَ إلى ما وراء المعلّم في «ظامئات» فبصرت باللّوح الأسود، وقلت إنّ أنف المعلّم يعلو حافّةَ اللّوح العليا.

هكذا تضع قارئك في تلك الغرفة. إذًا فحينما تؤلّف حكاية عن بقّال كبير الأنف ـ فمنخاره أكبر من أيّ من خياراته، أو سائق

سيّارة نزق الأطباع فأخلاقه مثل زمّارته، لا يأتي منها إلاّ الصياح، أو أردتَ أن تصف فتاةً تذرع المروجَ في شهر أيّار فقُلْ إنّ الأعشاب كانت في علوّ ركبتها. هكذا تغمر قارئك بواقعيّة الحوادث وتزجّه في جغرافيّة حكاياتك، فينسى نفسَه ويروح يصدّق ما أنت له راوٍ.

قصة المرآة إنّ أجمل قصّة قرأتُها حتّى اليوم هي «المرآة.» خلاصتُها أنّ فتاة تزوّجتْ عشيقَها وكانا في فقر، غير أنّهما سعيدان. كانت الفتاة فتّانة الجمال، وكان زوجها يرغب في إرضائها. وبعد شقاء سنوات، ادّخرا شيئًا من المال. فأراد الزوج أن يهبط لندن من كوخهما في الرّيف، فسأل زوجتَه أيّ حاجة تريد أن يهديها. أجابت «مرآة.» ورجع الزوج من لندن فرحًا بمرآة كبيرة وضعها في أعلى درج البيت. فلمّا تطلّعتْ بها الزوجة تحقّقتْ لأوّل مرّة أنّ جهاد السنين صيّر منها عجوزًا شمطاء.

لو أنّ هذا المؤلّف سمّى قصّته «المرآة الغادرة» لكان فَضَحَ القصّة، فقتلها. ولو أنّ رشيد شقير نقدها لقال إنّ فيها «حشوًا وإسهابًا» إذ إنّ المؤلّف مهّد لهذه الحادثة الضئيلة ببضع صفحات. في هذه القصّة أرى رشاقة الدسّ أو «الزرع» في أعلى ذراها. إذا لم تكن قرأتها بعدُ فاقرأها.

أمومة بين يديكَ يا سهيل شيء من مثل موادّ «المرآة.» خذْ قصّتك «أمومة.» خلاصتُها أنّ أمًّا ثكلتْ وحيدها مرّتين. شيء

بديع. شيء جميل مبتكر. هذه حجارة يُبنى منها ناطحةُ سحاب، وأراك قد عمّرتَ منها كوخًا متصدّعَ الحيطان. هذه التيم (تعريف Theme) بين يديْ ماهر الصنعة يحوكُ منها قصّة عالميّة. لو أنّك مهّدتَ لها بحوادث معقولة مثل: أن يَسْمع الفتى جارَته الثكلى تنوح، فيثير نواحُها حنينَه إلى أمّه؛ ومثل: أن ترى الأرملةُ الفتى ثمّ تحلم تلك اللّيلة بابنها، ولكنْ بابنها لابسًا وجهَ جارها ـ فهذا شيء معقول. فالعلم يُثْبت أنّ الصوت يوقظ الذكريات (ولكنّ الرّائحة أفعلُ بإيقاظ الذكريات، إذًا فليَنْشقْ رائحةَ العطر من جارته الثكلى أو رائحةَ طبخةٍ كانت أمّه تجيد صنعَها أو... أيّ شيء يسوق إلى النهاية). أمّا الأمّ التي فقدتْ وحيدَها مرّتين فهي، على ما يَظْهر من بيئتها، امرأة جاهلة تؤمن بالأحلام. ومن الطبيعيّ أنّها في مصيبتها كثيرة الأحلام... شيء من هذا.

قصّة «**هي وكلبها**» أسمع في **أشواق** هديرَ أرض باطنيًا، فأتطلّع فلا أرى حممًا ولا دخانًا. «هي وكلبها» طيّبة الصلصال، قبيحة التمثال. لو أنّ الفتاة أحبّت مِنَ الفتى عنتريّةَ جسمه ومظاهرَ الإقدام فيه، وفيما هو يقبّلها القبلةَ الأولى فاجأهما الكلبُ بنباحه، فذُعِرَ العاشقُ وهرب والكلبُ راكضٌ في إثره، والحبيبةُ تقهقه، وهكذا انتهى الغرام، لكان في مثل هذا «قصّة.» أوّلاً: الحبّ في نظر السذّج هو حبّ. أمّا في نظر براهمة الأدب فهو ألفُ نوع. إذًا فأنت حين تقول إنّها أغوتها في فتاها مظاهرُ العنتريّة، دخلتَ في صفوف البراهمة. ثمّ إنّه من الطبيعيّ أن يَنْبح الكلبُ إذا رأى

صاحبته في ذراعيْ رجل.

ومن الحقائق العلميّة أنّ الخائف تنبعث منه رائحة كريهة لا تشمّها غيرُ الكلاب، وأنّ الكلاب تتقزّز نفسُها إذ تَنشَقُ هذه الرائحة فيشتدّ نباحُها وتهيج. هكذا يمسي في قصّتك ١) حادثةٌ فَكِهَةٌ قويّة. ٢) فَضْحُ الذين لهم مظاهرُ الرّجولة ولكنّ فيهم قلوبَ الأرانب ـ جورج برنارد شو ألّف كتابًا طويلاً عريضًا يُثبت أنّ الملاكم المحترف هو جبان. ٣) الهزءُ من الفتيات المغفّلات اللّواتي يوْلَع غرامُهنّ بوهم وينطفئ بحادثة تافهة. ٤) إنّ الكلب، صديقَ الإنسان الأوفى، في غيرته على صاحبته، كَشَفَ لها مزيَّفَ المظاهر التي أغوتها.

وإنّي أشجّعك على كتابة القصّة الحيوانيّة، إذ إنّ الحيوان يلعب دورًا مهمًّا في حياة الإنسان. كذلك في هذا اللّون من الأدب فائدةٌ اجتماعيّة: لكُنّا شعبًا أقلَّ فظاظة، ولكان احتكامُنا إلى المسدّسات أقلّ، لو أنّنا ندلِّل الكلابَ بدلاً من أن نرميها بالحجارة. ولا تنس أنّ من أجمل ميراثنا الأدبيّ ما قاله الأوّلون في حيوانين: الجمل والحصان. «هي وكلبها» تَقْدر أن تدور بها عشرين دورة وتجعل منها عشرين قصّة. إنّ هذا ما يثير حنقي عليكَ. أُجيل نظري في بضائعك فأرى فيها الكثير من الجيّد النادر، ثمّ أتطلّع في حانوتك فإذا الملفوفُ فوق أثواب الحرير، وقِشْرُ البطّيخ في جوار كلسات النيلون (عفوك عن هذا الازدواج)!

القصّة والموسيقى ليس من فنّين تشابها مثل القصّة

و«الصوناتة.» استمعْ لصوناتة من بتهوفن تَشْعرْ أنّ النقرات الأولى توقِظك في رفق أو عنف، ثمّ تهزّك وتتماوج بك (حشو وإسهاب في نظر رشيد شقير) ثمّ تندفع بك في صخب ولجب، ثمّ تهتزّ في وقفة جامحة. هذه هي القصّة التي يَرْبط أوّلَها بآخرها خيطٌ هيوليٌّ أرقُّ من غزل بشارة الخوري.

مستقبل القصّة العربيّة إنّي متفائل بالمساهمة التي سيقدّمها كتبة العرب في أدب «القصّة» العالميّ لسببين. أوّلهُما أنّنا قوم ملهمون كسالى. والقصّة، على عكس الدرامة والنوڤل، تحتاج إلى جهد قليل. والإلهام ملازِمٌ للإبداع، ولنا من الإلهام حظّنا. ولكنْ حذارِ أن يحاول الواحد منّا قطع «المانش» قبل أن يصبح في مقدوره أن يطفو في البركة!

أمّا السبب الثاني الذي يَهِيب بي أن أتفاءل في مستقبل القصّة العربيّة، فهو أنّ العرب منتشرون في بقاعٍ متراميةِ الأطراف تكاد كلُّ بقعة منها أن تكون دنيا ليس بينها وبين الثانية شَبَهُ: البسطة، دير مشموشة، خيام الرولة، عِزب دمنهور، السويدا، حيّ السراسقة ـ الله الله! كيف لا تشبه الواحدة الثانية!

ومن كنوز هذه الدنيوات ستغتني اللّغةُ العربيّة وتُغْني الأدبَ العالميّ. هذا إذا استوحى الكتبةُ الحياةَ لا الكتبَ فحسب، وإنْ هم لم يشرّعوا أقلامَهم ولم يمدّوا طاولات الكتابة في صالون أموات مصطفى لطفي المنفلوطي.

التضخّم الإطرائيّ إنّ أكبر نكبة على اقتصاديّات أيّ بلاد هي التضخّم الماليّ. وفي معتقدي أنّ أعظم مصيبة على الأدب العربيّ اليوم هي «التضخّم الإطرائيّ.» ولا أدري إنْ كان أعجبَكَ هذا النّقد لكتابك، ولكنّي واثق من أنّ ما فيه من مديح دفعته لك دولارات أميركيّة، وذهبيّات «أم حصان»، وعندي أنّك أغنى بهذه العملة منك بملايين الدولارات الصينيّة. يهمّني جدًّا أن تحبّني ولكن يهمّني أكثر أن تحترمني. وإنّي لأُؤْثر أن أَهْمزكَ إلى العمل بكلمات مؤلمة من أن أقتلك رويدًا رويدًا بشيء تستلذّه أنتَ وأستلذّه أنا ويستلذّه النّاسُ أجمعين: هو مورفين المديح.

أُخرج إلى الحياة أُخرجْ إلى الحياة وعُبَّ منها. إنّ إبراهيم حيدر ما كان جاد على العربيّة بتلك العبارة الخالدة «الوزارة نايمة على الثقة» لو لم يكن مارس من الحياة ناحيةَ لعبةِ البوكر. نوّعْ حياتَكَ. أنت مسلم تصلّي في الجامع كلّ يوم جمعة. عال! رُح الأحدَ القادمَ إلى الكنيسة، واحضر القدّاسَ، وانشقْ عبيرَ مبخرة الكاهن، واصغِ إلى الترتيل في اللاّتينيَّة. إنّ تجويد القرآن وأذان المؤذّن يغسلانِ الرّوح، رحْ اختبرْ ما يفعله لروحك بخّورُ الكنيسة. كيف تأتي إلى المكتب؟ ماشيًا؟ تعلّقْ بالتراموايِ مرّةً بعد مرّة، واركب التاكسي في بعض الأحيان! تعلّم الرّقصَ! غنِّ المرسيّيز! اِركبْ على حمار! تبادلِ الشتائمَ مع طَنبرجي! رشّحْ نفسَكَ للنيابة! ادخلْ في الكتائب! انضمَّ إلى النجّادة!

اِنسحبْ من الكتائب! استعفِ عن النجّادة! اِفتحْ دكّان بوظة في

البادية! هرّبْ أسلحة! تاجِرْ بالحشيش! تضارَبْ مع عبد الستّار الطرابلسي! ترحّمْ على الانتداب بقصيدة! ادرس اللّغة السنسكريتيّة! تزوّجْ! إبْقَ أعزب! ادخلْ في الإطفائيّة! أحرقْ أثاثَ البيت! قامرْ في سباق الخيل! سمِّمْ جيرانَك! انتحرْ! إسهرْ اللّيلَ كلّه! نَم النّهارَ كلّه! إقفزْ من النّافذة! إمْشِ حافيًا! إمشِ عاريًا! ألّفْ كتابًا! لا تؤلّفْ كتابًا! إحمِل السلّم بالطّول! احمل السلّم بالعرض! تبرّعْ بدمك لمريض! ألْقِ قنبلةً على مستشفى!

هذه هي الحياة، فعُبَّ منها. إنّما أمرًا واحدًا أرجوك أن لا تفعل ـ وهي أن لا تسأل أيًّا من النّاس رأيَه في كتابك. إستشرْ ما تشاء ومَنْ تشاء قبل أن يُنْشر الكتاب، أمّا متى ظهر فافعلْ ما يفعله القبضاي بمسدّسه ـ لوّحْ به في الفضاء وصِحْ: «الكلّ بيخدموك.»

وإنّ في كتابكَ الكثيرَ من الفضائل السلبيّة. مثل أنّك لم تحاول اغتصابَ النكتة. فإنّ الكثيرين من أدبائنا اليوم يتوهّمون أنّهم متى ذَكَروا اصطلاحاتٍ عاميّة، أو وضعوا بعض كلمات بين أهلّة، أو رووا نكتةً ضحك لها من قَبْلنا جدُّنا آدم، صاروا كتبةً فَكِهين.

وإنّي من المؤمنين أنّ الفنّ يعلو ولا يُعْلَى عليه. ولو أنّي أيقنتُ أنّك مجلٍّ في ميدان التبذّل والتهتّك، لما سألتُكَ أن ترعوي عنه. ولكنّ هذا الميدان ليس ميدانك. أُنْظُرْ إلى عبارتك العجراء «لقد أرجعتني... يا حسني... حسبتُكَ لا تزال مبتدئًا... أنتَ حقًّا قويّ!» أُنظُرْ إلى تلك العبارة، ثمّ لننسَ أنّها كُتِبَتْ!

تصميم القصّة إخالُكَ لا تضع تصميمًا لقصصك؟ هذا غلط،

وهو غلط خطر على كاتبٍ مثلِكَ موفورِ الألفاظ. ضعْ لقصّتك تصميمًا كما يفعل المهندس بخريطة البناية قبل أن يباشر البناء. بالطّبع حينما تجلس لتكتب ستَشْرد عن الخارطة قليلاً، ولكنّ التصميم ضروريّ. إيّاك أن تستشير صديقًا يشتغل بالأدب، قبل أن تَشْرع بالكتابة. إذ إنّه إمّا صديق صديق لا يرى المعايب، أو مخاتِلٌ يَهْدم معنويّاتك. حينما تضع التصميم للقصّة وتمسي واضحة في مخيّلتك، إروها لأجنبيّة أو أجنبيّ يَجْهل العربيّة، وقلْ له أو لها إنّها قصّة قرأتَها اللّيلة البارحة. لا تنتظر منه أو منها إبداءَ الرّأي. إنْ لم يثب أو تثب بعبارات الإعجاب، فالقصّة فاشلة. وإنْ لم يكن لك من الأجانب صديق فاروِها لأمّيّ وتبصَّرْ بانفعالاته.

إلى نادي البراهمة أمامك، قبل أن تبيضّ لحيتُكَ، أيّامٌ كثيرة وانتصاراتٌ كثيرة. وإنّي لواثق أنّك نام إلى مبتغاك، وأنّك واجد منجمَكَ، وأنّك ـ في محاولتك القادمة ـ ستتأبّط كتابَكَ المقبلَ: جوازَ دخولٍ إلى ذلك القصر القائم بين الغيوم، ووثيقة عضويّة في ذلك النادي «نادي البراهمة.» وإذ تُقْبل عليه لا يَفُتَنَّ عزمَكَ عِظَمُ أبراج القصر، فلن تكون هناك غريبًا، إذ سيخفّ إلى لقائك فرحًا بقدومك، ذلك المزدهي بأوسمته، الرّافلُ بطيلسانه، مَن قامتُه تَقْزِم أبراجَ «نادي البراهمة» ومَنْ يطفح بالخيلاء إناء حياته:

أخوك

سعيد تقيّ الدّين

ملاحظة: سجّلْ لي هذا التعبير الجديد «براهمة الأدب.»

* * *

كانت آخرُ رسالة ـ مقالة كتبتُها لسعيد ردًّا آخر على ما أبداه في رسالته الآنفة. وقد نُشرتْ في جريدة **بيروت ـ المساء** ٢٥ آب ١٩٤٧.

«مراحب سعيد!

ألا تشعر أنّنا نكاد نضايق قرّاء **بيروت ـ المساء**؟ أنت تتحدّث عنّي وعن كتابي، وأنا أتحدّث عنك وأردّ عليك؟ مهما يكن من أمر، فالخطأ ـ إنْ كان هناك خطأ ـ يقع على صديقنا الأستاذ المشنوق: فهو الذي فتح لنا الباب، وأحسب أنّه لن يغلقه هو نفسه، وإنّما سيدعنا نتناقش ونتساجل، وقد نذهب إلى أبعد من ذلك، إلى أن يغلقه أحدٌ منّا أو كلانا... والضحيّة دائمًا هو القارئ.

وأيًّا كان، فقد كاشفتُ الأستاذ المشنوق برغبتي في أن أكتب ـ أنا نفسي ـ نقدًا لكتابي **أشواق**، بعد أن يئستُ من النقّاد، ولم أقع على مَنْ يُشْفي غليلي، وإنْ كان معظم الذين تناولوه أثْنوا عليه الثناءَ المستطاب. أجل هممتُ بقراءة كتابي ناقدًا، محاولاً جهدي أن أتجرّدَ عن نفسي، وأعتبرَني أجنبيًّا عن صاحبه، فأتتني رسالتُكَ الممتعة البارعة. ولستُ أقول إنّها صرفتني تمامًا عمّا كنتُ أهمّ به، ولكنّها برّدتْ ظمئي، وهدّأتْ همّي، يراودني منذ خرج

الكتاب إلى السّوق. وأمّا ذلك النقد الطويل الذي كتبتَه بعد أن أخرجتَ القصص من التعتيق وقرأتها ثانيةً، فأشكركَ عليه، لأنّه كان صريحًا نزيهًا، ولأنّك أنفقتَ وقتًا غير قصير لتدبيجه. وإنّي لأرجو أن أكون جديرًا وكفؤًا بما سقتَه لي من التقريظ. وأصارحك القول، كما صارحتُ بعضَ أصدقائي، أنّه كان حسبي أن أَعْلم أنّ نقدًا كمثل هذا سيُكتب عن قصصي حتّى أكون سعيدًا بنشرها.

على أنّ لي ملاحظات أودّ أن أردّ بها على ما آخذتني به ألخّصها فيما يلي:

أردتَ أن تُثبت أنّ حوادث قصصي غيرُ محتملة الوقوع، فاستشهدتَ بقصّة «هي وكلبها» قائلاً: «إنّ فتاة تقتني كلبًا تدلّله لن تنهال عليه بهراوة كما فعلتْ فتاتُكَ. ومثل تلك الفتاة لن يكون في متناولها هراوات.» والواقع أنّ البطلة لم تَنْهَلْ على كلبها بالهراوة إلاّ حين رأته هاجمًا على خطيبها يعضّه ويمزّق ثيابهَ ويسيل دمَه من جرح عميق في ذراعه، ثمّ رأت خطيبها يتراجع ويكاد يسقط خائرًا. وأنت طبعًا لا تطلب منها أن تظلّ مكتوفة اليدين، وأن تُؤْثر العطفَ على كلبها. وإنّما يكون طبيعيًا منها جدًّا إذا «شعرتْ بموجات من الغضب الشديد تتدافع في صدرها» أن تضرب كلبها بهراوة، لم تكن في متناولها، وإنّما وجدتها «ملقاة في الحديقة!» أمّا لماذا رمت فتاةُ بوارج بنفسها منتحرةً في «راحة الضّمير،» فلأنّ هذا الشاب الذي كانت تحبّه أشدّ الحبّ ويقضّ عليها مضجعَها قد أخلف وعدَه في أن يصطحبها معه، فرأت حبّها يتبعه، وألفتْ

أملَها المنشودَ الذي تغذّيه بكلّ قوى حياتها يخيب. ألم يحدث أن انتحر قبل اليوم عاشقٌ هجره حبيبُه، أو فتاةٌ تخلّى عنها فتاها؟ فأين الغرابة في هذه القصّة؟

وتأخذ عليّ الازدواج: «رغائب النفس وخوالج الرّوح»، لست أدري كيف تريد أن تتجاهل الفرق بينهما! هل الرغبة هي الخالجة، وهل النّفس هي الرّوح، دون أن نهتمّ بالرّجوع إلى خلافات الفلاسفة والمتكلّمين؟ «أُطْفِئَتْ عيناه فهو لا يبصر»؛ إنّك أوّلاً لم تورد العبارةَ على صحّتها: «أطفئتْ عيناه فهو لا يبصر النّور» فأحسب أنّها الآن أكثر استقامة. وحتّى كما أوردتَها، أيّهما أبلغ: «أطفئتْ عيناه» و«بسّ» ـ ألا تراها «واقفة؟» ـ أم أطفئت عيناه فهو أكثر جدًّا ممّا تفيد نصف هذه العبارة؟ وأيّهما أكثر موسيقى وأعذب جرسًا في السمع؟ إنّك يا أخي سعيد صاحب ذوق أدبيّ مرهف، فكيف تبرّر هذه المآخذ؟

إنّ العربيّة لا تحتوي كلمتين تفيدان معنى واحدًا؛ ففي الثانية معنى أوضحُ أو أعمقُ أو أبسطُ، اختلافٌ عن المعنى الأوّل على كلّ حال. مَثَلُ هذا «فَرَقٌ وفَزَعٌ»؛ وهل «مطمئنة إليه» تفيد المعنى نفسه الذي تفيده «سعيدة به؟» وثمّة بون كبير بين «حبّ وودّ» و«سرور ورضى» و«شذى وعطر.» ومن إضاعة الوقت تبيينُ هذا الاختلاف، وإلاّ لماذا لم تقم به أنت نفسك بعد أن هممتَ؟ الحقيقة أنّك «تكره» الازدواج، لكنّ كرهَكَ له لا يعني أنّه ليس وجهًا من وجوه البلاغة! ثمّ ألا ترى أنّه يُكسب الأسلوب رونقًا وبهاء (وهذا ازدواج معيب في نظرك!). ومع ذلك، فما قولُكَ في

إنّك عمدتَ أنتَ إلى المزاوجة ـ التي تعيبها ـ في **نخب العدوّ**. ألم تقل (ص ٧): «فصيّر شيعَهم شيعةً، وطوائفَهم طائفةً، وجماعاتهم جماعة» ـ أليست «شيعة» مرادفة ـ إذا صحّ أنّ ثمّة ترادفًا في العربيّة ـ لـ«طائفة» و«جماعة؟» «فاشتكى وتذمَّرَ من عطل الحال» (٢٣١) ـ «يدرّ على صاحبه الرّبح الأدبيّ من صيت وشهرة» (ص ١٠) هل الصّيت غير الشهرة؟ «حنكة السياسي ودهاؤه» (ص ١٠) ـ «مفلس خالي الوفاض» (٣٢) «بحور متشابكة التيّارات متدافعة الأمواج» (٢٤) إلخ.

أنا لا أُنْكر عليك هذه المزاوجات فهي جميلة، ولكنَّكَ أنتَ تُنْكر الازدواج على غيرك وتبيحه لنفسك. بقي أن نبحث مبدأ المزاوجة؛ فأنا لا أحبّذه في كلّ موضع، ولا أنكره في كلّ موضع. فالمزاوجة جميلة في مواضعها، بل هي ضروريّة في المواضع التي لا يستقيم فيها نغمُ العبارة وموسيقاها. فالمهمّ في الموضوع حسنُ استعمال المزاوجة، وهذا معنى من معاني البلاغة. فهل تراني أخفقتُ في تلك العبارات المزدوجة، وهل تراكَ أنتَ أصبتَ بها؟!

أمّا قضيّة استعمال الألفاظ والتعابير غير المألوفة، فإنّ لي فيها رأيًا مبيّنًا. فأنا لا أعمد إلى هذه الألفاظ حبًّا بالإغراب، وهي لا تَرِدُ على قلمي اعتباطًا، ولكنّي أرى أن نُحْيي هذه الكلمات العربيّة الجميلةَ الوقعِ، الرّقيقةَ التركيبِ، فنتفادى من جهةٍ ترديدَ تلك الكلمات المبتَذلة لكثرة الاستعمال، ونُغْني من ناحية أخرى لغتنا ونرتفع بها إلى مستوى أسمى من التعبير. فأنا أجد «تصرَّمتْ أيّام»

أجمل من «مضت» أو «انقضت،» وأعتبر «زَجَيْتُ» خيرًا من «قَضَيْتُ.» وأودّ أنا أن أسأل: أليس فطاحل الكتّاب يتميّزون ـ فيما يتميّزون به ـ باللّغة الرّفيعة والكلمات المتخيَّرة من بين مئات الكلمات «العادية؟»

ولماذا تَعْجب من هذه الفتاة التي تتعثّر بأذيالها، وهي تريد أن تتعلّم الكمان؟ إذا كانت في سنّ «سميّة» ـ السابعة عشرة ـ وكانت مسلمة مثلاً، تعيش في ذلك الجوّ المتحفّظ، فإنّ العجيب أن تكون جريئةً ولا تتعثّر بأذيالها! وعلى ذلك فبوسعك يا أخي سعيد أن تتبرّك بأذيال كثيرات من فتياتنا اللبنانيّات، حتّى لتكره التبرّك والبركة! وأراك بعدُ تُريش سهامَكَ للمنفلوطي... وأنا أَصْدقك القول إنّي لم أقرأه كثيرًا، وإخالني لم أتأثّر به، على أنّي رجعتُ اليوم إليه، فما ترى عيبُه؟ أفي ذلك الأسلوب المشرق، والديباجةِ الجزلة، والبيانِ العربيّ الرائع، على الرّغم من رغبته أحيانًا في الإغراب؟ إنّ المنفلوطي لخليق أن يكون صاحبَ مدرسة في البيان العربيّ!

أمّا رأيك في عنوان القصّة فعجيب. لماذا تريده لغزًا؟ لا أريد الآن أن أناقشك، ولكنْ قلْ لي أين اللّغز في عناوين قصصك في **نخب العدوّ**؟ باستثناء «الثلج الأسود» ـ ما أعجب هذا اللّغز! ـ اقرأ: «حلم البولڤار»؛ «التجارة شطارة»: أيصلح هذا عنوان قصّة؟؛ «دون كارلوس»؛ «صورة أمّ فريد»؛ «حمار الصفّ»: عنوان موفّق من حيث الروح الفكاهيّة؛ «حمّود»؛ «شيخ القافلة»؛ «الكتاب العظيم»؛ «الملك فردننس»؛ «ذنب الطاووس». إنّ

معظم عناوين قصصك تحمل اسم بطل القصّة، فأين اللّغز؟ أتراك تنسى يا أخي سعيد أنّ الناقد يجب أن يكون منسجمًا مع نفسه؟!

وفي ميدان «الصنعة،» أخذتَ عليّ أنّي فضحتُ نهاية قصّة «نداء الأعماق.» وأنا أعجب كيف حكمتَ على نهاية هذه القصّة بهذا الحُكم، وهي أغمض نهايات قصصي وأشدّها خفاء! واسمح لي هنا أن أستشهد بحُكْم كاتب كبير من كتّاب القصّة في العالم العربيّ، هو الأستاذ محمود تيمور رائد القصّة العربيّة. فهو يعتبر ـ في رسالة خاصّة منه ـ نهاية هذه القصّة «رائعة موفّقة» بفضل غموضها وإبهامها!

وأنا أوافقك على ما أخذتَه عليّ بشأن تحيّة الأستاذ لتلميذته، ولكنْ أدهشُ كيف يغيب عنك أنّ القرويّات يبادئن المصيّفين التحيّة. هل أنساك البعدُ في الفيليبّين عادات قومك؟! وأمّا العبارات التي يتفوّه بها الذين هم على فراش الموت، فأحسبك كنتَ تمزح إذ قلت إنّ النّاس لا يَفُوهون بالعبارات الخالدة في ذلك الموقف؛ فأنت تعرف أنّ أخلد عبارات فاه بها كثيرون من العظماء والساسة والقادة والأدباء كانت حين تنازعهم الرّوح. وإذا كان جلال زريق يفوه بعباراته الخالدة في بيت الخلاء، فما أحسبك أنتَ قد جدت بطرفتك المسرحيّة **نخب العدوّ** في مثل ذلك الموضع والظرف!

وعلى الرّغم من احترامي لرأيكَ في الشّكل الذي كنتَ تفضّل أن تصاغ فيه قصّتا «أمومة» و«هي وكلبها»، فأنا لا أزال أعتقد أنّهما أجمل كما وردتا في المجموعة.

وبعد فقد كنتَ أنت سعيدًا باكتشافي ناقدًا، إذ درستُ دراسةً موجزة كتابكَ الرّائع. وأراني لا أقلّ عنك سعادةً، فأنا أيضًا اكتشفتكَ ناقدًا ممتازًا، وقبل ذلك «متذوّقًا» كبيرًا للأدب والفنّ. إنّ لك يا سعيد طريقةً في النّقد فذّة بين الطرائق. إنّ «الإبداع» دأبك في كلّ شيء: في التأليف أو النقد أو التعليق. وما أروع نصائحك لي بالخروج إلى الحياة: إنّني أعترف لك أنّ الحياة تنقصني، وأنّي بحاجة إلى خوضها والتعمّق فيها، وهذا اعتراف بوسع «كثيرين» من «محبّيّ» أن يستفيدوا منه! ولكنْ لعلّك التمستَ لي أنتَ نفسُكَ المعاذيرَ إذ قلتَ «أمامك، قبل أن تبيضّ لحيتُكَ، أيّام كثيرة وانتصاراتٌ كثيرة.» وكم أنا سعيد في أن أراك تنتظر قدومي إلى ناديك العبقريّ، نادي البراهمة.

ولكنّني أخشاك يا سعيد! إنّك ذو هيكل مخيف، وأنا مخلوق أقرب إلى القِصر والهزال. ثمّ إنّك ذو دماغ جبّار، فكيف سأقوى على الوقوف أمامك! لا... لا... سأرفض أن أراك يوم تعود إلى لبنان. فما يدريني؟ لعلّك أن تغيّر بي رأيك! فلتظلّ تنظرْ إليّ على الورق، من خلل السّطور!

لقد أحببتكَ يا سعيد من زمان، وازداد حبّي لك اليوم. أمّا الاحترام فإنّي أكننتُه لكَ منذ قرأتُ كتابك، وما زلتُ أكنّه، ولعلّه ارتفع وسما درجةً جديدة.

لقد سُقتَ لي نصائح كثيرة، فهل تسمح لي بواحدة: إنّ أكبر جريمة ترتكبها في حياتك هي أن تنصرف يومًا عن الأدب!

عُدْ إلينا، فإنّ لك بيننا المقام المرموق، وإنّ لك في الأدب

العربيّ لشأنًا!

سهيل إدريس»

***

كانت هذه الرّسائل بيني وبين سعيد تقيّ الدِّين نقاشًا مطوّلاً حول فنّ القصّة، كان لا بدّ لي حينها من إطلاع القارئ عليه. إلاّ أنّ كثيرين حاولوا الدخول على الخطّ فلم يُفْلحوا، أو لم نعطهم أنا وسعيد مجالاً لذلك.

وأذكر هنا، بالمناسبة، أنّ سعيد فريحة علّق على نقد سعيد تقيّ الدِّين لـ **أشواق**، فغمز من قناتي. فكان أن انبرى سعيد تقيّ الدِّين يردّ على صاحب **الصيّاد**، في رسالة وجّهها إليه قائلاً:

«إنّ ما ظهر في كتاب **أشواق** تحت فيض تلك الأشعّة النافذة التي سلّطتها عليه هو أكثر بكثير من الذي يبقى من معظم كتب هذه الأيّام لو سُلّطتْ عليه مثلُ تلك الأشعّة. إنّ سهيل إدريس أَظْهر تهذيبًا رفيعًا وشرفَ نفسٍ نادرًا حين نَشَرَ نقدًا قاسيًا لكتابه من أحد أخلص أصحابه. بل هو كشف عن ثقة نفس يُحسد عليها. ولئن كان يصعب عليك أن تراه بسبب قربه منك، فاعلمْ أنّك تجاوِر مَنْ سيصير جبّارًا. إنّ في قلبه ورأسه حممًا سيبْهر العيونَ وهجُها.»
(**الصيّاد**، العدد ١٩٧ سنة ١٩٤٨).

إنّ الرّسائل التي تبادلتُها مع سيعد تقيّ الدِّين قد ربطتْ بيننا بصداقة أدبيّة جعلته يرسل لي مخطوطة مسرحيّته **حفنة ريح**، وأرفقها بمجموعة أقاصيص **موجة نار**، وكلّفني بأن أضمّ إليهما مراسلاتنا وأُشرفَ على نشرها جميعًا في كتاب واحد. وقد حوّل

لي مبلغًا من المال للإنفاق على إصدار الكتاب الذي نشرتْه دارُ العلم للملايين. وكتبتُ أخبره أنّه بقي من الحوالة مبلغ، فأجابني بأن أحتفظ به تعويضًا عن الجهد الذي بذلتُه في إصدار الكتاب. وحين استكثرتُ المبلغ أجابني ملحًّا بالاحتفاظ به وأضاف يقول: «لا بدّ أن أحتاج إليكَ ذات يوم!»

صدر كتاب سعيد في كانون الثاني من عام ١٩٤٨ منتهيًا ببيان أرسله سعيد، هذا نصُّه:

بيان

«إنّ سهيل إدريس الذي روّح نفسَه بطبع هذا الكتاب والإشراف على تنسيقه، ونَعِمَ ساعات كذا عدّها بتعهّده شؤون نشره، هو وحده المسؤول عمّا قد يجده القارئ من أغلاط وأمور غير مستحبّة. وليس للقارئ أن يعزو إليّ إلاّ ما قد يجده في هذا الكتاب من قيّمٍ وجميل.

هذا بيان يوحيه واجبُ الاعتراف بالجميل الذي أسديتُه إلى سهيل إدريس، إذ يسّرتُ له سبيل خدمتي المجّانيّة، فوقَيْته من داء الأثرة، وروّضتُ كتفيه بهذا الحمل الذي قوّى عاتقيه، وشغلتُ ساعاته بشؤوني، فدفعتُ عنه خطر البطالة.

المؤلّف»

وبعد فترة وجيزة أبرق لي أنّه سيعود إلى لبنان «سأترك مانيلاّ في ٣ شباط ١٩٤٨، على الباخرة پريزيدانت. جمِّدْ مدينة بيروت في مكانها ريثما أصل.» إلاّ أنّه غيّر مجرى رحلته إلى القاهرة

أوّلاً، فسافرتُ إلى القاهرة في آذار ١٩٤٨ للقاء سعيد في طريقه إلى لبنان عائدًا من الفيليبّين. وقضيتُ بضعة أيّام نعمتُ فيها بصحبة إنسان شديد الحيويّة والمرح، حاضر البديهة، سخيٍّ اليد. وقد كتبتُ في جريدة **بيروت** (٦ آذار ١٩٤٨) عن سعيد العروبيّ ذي الرّوح الوطنيّة العالية، من خلال ما رأيته منه:

«الذي يُتاح له أن يستمع إلى سعيد تقيّ الدِّين يتحدّث عن العروبة وفلسطين وسائر الشؤون القوميّة، لا بدّ أن يُضْمر له القداسة والتقدير. فهو رجل تنبض روحُه بالوطنيّة، وتهتزّ جوانحُه لأيسر الأمور المتعلّقة بفلسطين. وقد رأيته ذات ساعة يتوقّف في أحد الشوارع وهو يحدّق بجنديٍّ يقترب منه، حتّى إذا بلغه مَدَّ له يدَه مصافحًا وسأله: أنت من؟ فأجابه الجنديّ: أنا ضابط في الطيران السوري. فاهتزّ الشيخ سعيد، ثمّ سار وهو يحاول أن يكبت دمعة ترقرقتْ في محجريه. وظلّ صامتًا طوال ساعتين بعد ذلك لم ينبس بكلمة.»

بعدها، حين عدت إلى بيروت، نشرتُ في **بيروت ـ المساء** (آذار ١٩٤٨) الحكايات التالية، بلا توقيع.

اِضحكْ مع سعيد تقيّ الدِّين

حين وصل الأستاذ سعيد تقيّ الدِّين إلى القاهرة، كتبتْ بعض الصحف المصريّة نبأ وصوله، ولكنّها اختلفتْ في لقبه. فكتبت **الأهرام** أنّه قنصل لبنان الفخريّ في نيويورك، وكتبت **المصريّ** أنّه

قنصل لبنان في كشمير. وسئل الأستاذ تقيّ الدِّين عن هذا الاختلاف فأجاب:

- لا بأس في ذلك.. فالمعاش على كلّ حال واحد.
والمعروف أنّ القنصل الفخريّ لا يتقاضى معاشًا.

يطلق المصريّون اسمَيْ «طماطم» و«أوطة» على ما نسمّيه نحن «بندورة.» وقد استدعى الأستاذ سعيد تقيّ الدِّين ذاتَ يوم أحدَ «الغرسونات» في مطعم بالقاهرة وناوله صحنًا وقال له:

- أرجو أن تملأ لي هذا الصحن: ثلثه أوطة وثلثه طماطم وثلثه الأخير بندورة.

فانطلق الغرسون وهو يقول: «حاضر يا بيه..» ولكنّه وقف بعد لحظات، والتفت ليرى أديبَنا مستغرقًا في الضحك!

دعا أديب مصريّ الأستاذ سعيد تقيّ الدِّين مع بعض الأدباء إلى غداء في حديقة الحيوانات بالقاهرة. وهناك راح أحد الحضور يُشِيد بصاحب **حفنة ريح** وبكتابه ويطريه. فالتفت إليه الأستاذ تقيّ الدِّين قائلاً:

- أذكِّركَ يا صديقي بأنّني لست أنا صاحب الدعوة!

سأل بعضهم سعيد تقيّ الدِّين عن عمره فأجاب: حين سافرتُ إلى الفيليبين كنتُ في الثانية والعشرين من عمري. وقد قضيتُ هناك ٢٢ عامًا فيكون المجموع ٤٤ سنة.

فعلّق سهيل إدريس قائلاً: الله يمحق اللّي بيصدّقك!

فأجابه الشيخ سعيد: الله يمحق اللّي منتظر أنّك تصدّقه!

* * *

عاد سعيد إلى بيروت ممتلئًا بالرّغبة في العمل الثقافيّ، فانتُخب رئيسًا لجمعيّة متخرّجي الجامعة الأميركيّة، في دورتين متتاليتين لمدّة ثلاثة أعوام ونصف أقام فيها مبنى نادي الخرّيجين، وأشرف على مجلّة **الكلّيّة** التي أرادها منبرًا للدفاع عن قضيّة فلسطين.

وفي عام ١٩٤٩ طلبتُ من سعيد تقيّ الدّين أن يقدّم لمجموعتي الثالثة **كلّهنّ نساء** فكتب يتساءل:

لئن جاءت كلمتي فيه عفيفة، لا ذاتيّة، غير عاطفيّة، فأيّ إنسان أنا يتناسى طعمَ اللّقمة التي أشبعتْ جوعَه الرّوحيّ، والقطرةَ التي روت نفسَه العطشى؟

غير أنّ الفرق بيني وبين صاحب هذا الكتاب أنّه كتب عنّي يوم كنتُ عنه غريبًا، وإنّي أكتبُ عنه بعد أن صار إليّ حبيبًا.

يستحيل أن أكتب عن مثل هذا الشخص بقلم المتجرّد النزيه. وإنْ لم يكن من الكذب بدّ، فلنكن في كذبنا صادقين.

فكيف إذن - لا فجعك الله بعزيز - يعالج بالنقدِ الصديقُ الصديقَ؟

سئل أحدُ الأميركيين لماذا قتل أخاه فأجاب: لأنّي أحبّه!

طُرُقُ الإجرام الأدبيّ كثيرة. لك أن تَخْنُقَ صديقَك إذ تطمره بأزاهير المدح، أو تَهْدم معنويّاته تحت رداء النصح الطاهر، أو تُهمل أمرَه خيلاء كي تَظْهر في النّاس شريفًا لا يتبذّل حتّى بإطراء أحبّائه. ويل النّاس من النفس البشريّة، فلا يراها بيضاءَ أو سوداءَ إلاّ الذي أعياه تحليلُ أظلّة ألوانها.

في دار المكاييل والموازين بباريس يحتفظون بالمتر العالي وسط فراغ حتّى لا تؤثّر به تقلّبات الطقس، وبه تقاس أمتار الدنيا. أمّا الفراغ القصصيّ في العالم العربيّ فهو موجود، ولكن أين هو المتر الذي به نقيس سائر الأمتار؟

حين نبحث قصص سهيل إدريس، نقابلها بقصص مَنْ؟ أبالذين شذّوا عن القاعدة؟ أم بالذين يدّعون النبوّة مزدهين بطويل اللّحى والسبحات؟ أم بالذين يريدون أن يصبحوا قصّاصين برغم أنفكَ وأنفي؟ أمّا هؤلاء، فمن الواضح أنّ مؤلّفنا أرفع منهم، بل إنّك تظلمه إنْ ذكرتَه وذكرتَهم في نَفَسٍ واحد. وأمّا تلك الحجارة التي ليس لها من ميزة عن باقي الحجارة إلاّ أنّ النّاس يحجّون إليها، فلن نقابل إدريس بهم، فإنّي ـ والحمد لله ـ لا أرى النّاس يتبرّكون بلمسه. إذن، فلم يبق لنا أن نقايس سهيل إدريس إلاّ بسهيل إدريس.»

واستطرد سعيد تقيّ الدّين في مقدّمته إلى القول:

«في كتابه **أشواق** كشف المؤلّف عن سليقة القاصّ، تعوزها عظمةُ الفكرة وطرافةُ الموضوع، وعن انسياب لغة الإفصاح يَشُوبها الترسُّلُ، وعن قلق الرّوح وهو الحافز الأدبيّ الأهمّ، وعن انعدام الصنعة الميكانيكيّة، وليس من الصعب درسها وإتقانها. وفي **كلّهنّ نساء** أثبت المؤلّف أنّه حيّ بسبب أنّه نما. فقد اتّسع أفق السليقة، وظهرت الصنعة إلى حدّ كبير من الحذق، وأشرقتْ ـ وهذه كانت وثبةً لا خطوة ـ طرافةُ الموضوع.»

وأنهى سعيد مقدّمته بقوله:

«صحيح القول إنّي لا أعتمد الموازين الخفيفة الشائعة حين

أقول إنّ المؤلف جاز إلى القصّة الشوطَ التمهيديَّ، وإنّه، وقد سلم من الإخفاق، يتوجّه إلى الإبداع».

في أواخر العام ١٩٤٩ تركتُ بيروت قاصدًا باريس لإعداد رسالة الدكتوراه. وعندما عدتُ في صيف العام التالي (١٩٥٠) للحصول على ليسانس الآداب بعد أن درستُ الصحافة، كتب سعيد الحواريّة التالية:

سهيل إدغيس يعود إلى بيغوت

يعود غدًا إلى بيروت على متن الباخرة بروڤيدانس الزميل الصديق الأستاذ سهيل إدريس بعد أن قضى ثمانية أشهر بباريس حيث نال شهادة الصحافة من أكبر معاهدها. فأوفدنا إليه مندوبَنا المتطوّع شمدص جهجاه ليأخذ منه حديثًا صحفيًا، فوافانا بهذا الحديث الطريف:

الباخرة التي تُقلّ سهيل إدريس لم تصل حتّى كتابة هذه الأسطر. لذلك نرجّح أنّ سهيل إدريس نفسه لم يصل أيضًا، ولهذا لم نرسل مُخْبرنا لمقابلته. وساد الهدوء في المرفأ، إذ إنّ وفود الضياع والمدن اللبنانيّة لم تزدحم في العاصمة بسبب عدم قدومها.

وقد نفى ناطقٌ بلسان العائد الكريم أنّ لرجوع سهيل علاقة بأزمة الحرب الكوريّة، أو بأزمة تشكيلات وزارة الخارجيّة، أو الأزمة الوزاريّة اللبنانيّة. وعَلِمْنا من مصادر مطّلعة أنّ عودة ابن

إدريس لها علاقة مباشرة بأزمة نفاد نقوده.

وكان من الطبيعيّ أن لا ننتظر وصوله بل نستبقه. فهُرع إليه مندوبُنا. وبعد أن فَتّش عرضَ البحر وطوله لم ير أثرًا لباخرته، بسبب التمويه (الكموفلاج) ـ وهو تدبير يتّخذونه حين يكون بين المسافرين شخصيّةٌ عالمية.

غير أنّ مندوبنا نشق رائحة عطور باريسيّة فسار خلف أنفه. ولم يطل به الوقت حتّى لمح دزّينات كرافتات تلمع معقودةً حول عنق كلاسيكيّ، وفتى يقرأ كتابًا عنوانه **كلّهنّ نساء**، وهو ساهٍ، ساهم، سادر، تائه الخطوات. فبادره بالسؤال:

ـ أنت سهيل إدريس؟

ـ نعم. أنا سهيل إديغيس.

ـ وأيّ مدينة تقصد؟

ـ بيغوت.

ـ ومن أين أنت عائد؟

ـ من ڤاغي.

ـ ما وجه الشبه بين المدينتين؟

ـ عندهم برج إيڤل، وعندنا برج أبو حيدر.

ـ وما الفرق بين المدينتين؟

ـ مثل الفرق بين البرجين.

ـ صفْ لي طقس باريس.

ـ حارّ على مدار السنة.

ـ والسبب؟

ـ الباريزيّات.

- هل قمت بدعاية في فرنسا للاصطياف في لبنان؟
- نعم. ونجحت (وشعّ في عينيه نور غريب وزاده تواضعًا).
- أهنّئكم. إذًا من سيصيّف في لبنان من الفرنساويين؟
- مسيو بويسون.
- ماذا درستم في باريس؟
- الصحافة.
- وماذا ستمارسون في لبنان؟.
- الصحافة.
- أيّ صحيفة؟
- سأنقطع إلى تحرير مجلّة **الصيّاد** خلال احتجابها.
- هل قابلتم جلالة الملك الفرنساويّ؟
- لا.

(ثمّ شعّ في عينيه نور غريب وزاد قائلاً:) ولكنّي قيّدتُ اسمي في دفتر التشريفات.

- هل اجتمعتم بديغول؟
- خلوت به في اجتماع قصير.
- هل حدّثته؟
- أفضيتُ إليه بحديث طويل.
- وماذا كان جوابه؟
- أرجّح أنّه لم يسمعني ولم أسمعه لسببين، قصير وطويل.
- كم عمر الوزارة في فرنسا؟
- أقلّ من سبع سنين.

ـ وممّن تتألّف الوزارة الحاضرة؟

ـ من رئيس الوزارة ووزرائه.

ـ قل لي، كيف هم أدباء فرنسا؟

ـ متقدّمون في أمور كثيرة ومتأخّرون في أمور كثيرة.

ـ من الأديب اللبنانيّ الذي هو أوسع شهرة في فرنسا؟

ـ الشيخ أندره جيد.

ـ والشّيخ سعيد؟

ـ قلت لك إنّهم متأخّرون في بعض المناحي، لم يَسْمعوا به بعد.

ـ غريب ألم تسافر إلى فرنسا من أجل؟ ما حادثة مبارزتك مع محافظ باريس؟

(فشعّ في عينيه نور غريب وحدّث):

ـ كنتُ مرّة راكبًا خلف الترامواي، وكان من الطبيعيّ أن نتجاذب أطراف الحديث. فسألني رأيي في باريس وقد كنتُ عائدًا من زيارة قبر الجنديّ المجهول، فاقترحتُ عليه أن تشيد مدينةُ باريس تمثالاً للوالد المجهول. فطلبني إلى المبارزة.

ـ وماذا جرى بعد ذلك؟

(فشعّ في عينيه نور غريب وتنهّد فإذا هو ساهٍ، ساهم، سارد، تائه النظرات، وتابع حديثه):

ـ بالطّبع قبلتُ الدعوة إلى المبارزة. وحمل كلّ واحد منّا متراليوز فيه ٢٠٠ طلقة، ووقفنا تَفْصلنا عشرةُ أمتار وأطلق متراليوزه عليّ أوّلاً فلم يصبني.

ـ كيف؟

ـ لأنّه على بعد عشرة أمتار لا يقدر أحد أن يراني.
(وتابع سهيل حكايته):
ـ أمّا أنا فأفرغت المتراليوز (٢٠٠) طلقة فلم أصبه.
ـ لماذا؟
ـ لأنّي صوّبتُ الرّصاص إلى رأسه فأصبته تحت قدميه.
ـ ما هي اللّغة الشائعة في باريس؟
(ففكّر محدّثي قليلاً وتاهت نظراته وأجاب):
ـ نحن في هذه الناحية نتفوّق عليهم لأنّنا في بيروت حطّمنا نير الاستعمار الفرنسيّ. أمّا في باريس فلا يزالون يرزحون تحته، وترى اللغة الفرنساويّة طاغية في باريس يتكلّمها جميع الباريسيين، حتّى الأولاد يتكلّمونها.
ـ ما رأيكم في هذه الباخرة؟
ـ فخمة، جميلة، سريعة.
(وشعّ في عينيه نور غريب وسألني):
ـ ترى أتكون زوجتي في انتظاري حين ننزل في المطار؟!
ـ فودّعته بعد أن طلبتُ له فنجان قهوة ودفعتُ ثمنه، وتركته، فإذا هو ساهٍ، ساهم، سادر، تائه النظرات يقرأ في كتاب كلّهنّ نساء.

شمدص جهجاه

صاحب الامتياز الملغى لجريدة «مغرب الفجر» والمحتجبة

بيروت ٢٠ تموز ١٩٥٠[1]

---

(١) جان دايه، **سعيد تقيّ الدّين في الحزب القوميّ** (بيروت: فجر النهضة، ط ١، ١٩٩٥)، ص ٩٦ ـ ٩٩.

كنتُ ما أزال في باريس لإعداد شهادة الدكتوراه، حين قرأت في الصحف نبأ انضواء سعيد تقيّ الدِّين إلى الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ عام ١٩٥١. «حصل تحوّل جذريّ في كتابات سعيد تقيّ الدِّين بعد دخوله الحزب. وسيُلاحَظ أنّ إنتاجه تطعّم بالعقيدة القوميّة الاجتماعيّة، وتناول في معظمه الدفاعَ عن مبادئ الحزب وإيضاحَ فضائله والردَّ على التهم التي أُلصقتْ به، وهي مجموعة ضخمة من المقالات، معظمها نُشر في **الأحد** و**صدى لبنان** و**النهار** و**كلّ شيء**.»[1]

وحين عدتُ من باريس وانصرفتُ إلى العمل لإصدار مجلّة **الآداب** طلبتُ من سعيد تقيّ الدِّين قصّة جديدة من قصصه لتنشر في العدد الأوّل، فوافاني بقصّته الرائعة «المرحوم.»

وبعد بضعة أشهر من ذلك العام (١٩٥٣) زارني سعيد في مكتب **الآداب** بدار العلم للملايين ليهنّئني على المجلّة ويشجّعني على المضيّ في إصدارها. وقبل أن ينصرف قدّم لي شكًّا بمبلغ ألف ليرة لبنانية (ما كان يساوي آنذاك زهاء ٥٠٠ دولار) على سبيل الدعم والمساعدة.

ولكنّه بعد ذلك بأيّام، أرسل لي قصيدةً ومقالةً وقصّةً لأدباء لم أكن قرأتُ لهم شيئًا. وحين وجدتُ أنّ الموادّ تنضمّ تحت ما يسمّى الدعاية السياسيّة الواضحة للحزب السوري القوميّ الاجتماعيّ، أعدتُها إليه، مرفِقًا بها شكًّا بألف ليرة، رافضًا أن أجعل من **الآداب** بوقًا لأيّ حزب.

---

(١) إدفيك جريديني شيبوب، **سعيد تقيّ الدِّين: سيرته وإنتاجه**، ص ٦٩.

وانقطعتْ صلتي بسعيد لفترة طويلة قضاها في نشاط حزبيّ محموم. وكنتُ أتسقّط أخباره من أصدقاء مشتركين عرفتُ منهم أنّه قد أنفق كلّ ماله في خدمة الحزب، وأنّ صحّته كانت تنهار بعد انعطاب قلبه.

وقد زارني ذات يوم من عام ١٩٥٦ فهالني هزالُه، وخلّف في نفسي حزنًا عميقًا حين صارحني بأنّه آل إلى الإفلاس. ولم يتورّع عن مطالبتي بمساعدة ماليّة. فقدّمتُ له مبلغًا كنتُ قد ادّخرته لليوم الأسود، لكنّي قلتُ له:

- هذا المبلغ لك أنتَ. لقد سبق أن ساعدتني.

وانصرف من غير أن يعلّق بكلمة.

هاجر سعيد تقيّ الدّين إلى المكسيك وكولومبيا في أيلول ١٩٥٨ وتوفّي هناك إثر نوبة قلبيّة قضت عليه وهو يستحمّ في البحر في شباط ١٩٦٠.

واليوم أجد أنّني قد قسوت وربّما تعسّفت في بعض أحكامي على سعيد الأديب الكبير الذي وإن شغلته السياسة عن الأدب، فالأديب الكبير الذي فيه لم تستوعبه السياسة، إذ انتهت علاقته بالحزب القوميّ بخلافٍ قيل إنّه فصل على إثره من الحزب، وذلك بسبب بيان كتبه سعيد تقيّ الدّين باللّغة الإنكليزيّة، يعلن فيه استنكاره للعدوان الثلاثيّ على مصر ويؤيّد مقاومة أهلها.

الفهرس

للمؤلّف

الحيّ اللاّتيني

الخندق الغميق

أصابعنا التي تحترق

أقاصيص أولى

أقاصيص ثانية

في معترك القوميّة والحرّيّة

مواقف وقضايا أدبيّة

المنهل (قاموس فرنسي - عربي)

ذكريات الأدب والحب هي الحلقة الأولى من السيرة الذاتية للمؤلف، ومزيجٌ من صور حياته الاجتماعيَّة والثقافيَّة. وهي بهذا تضمّ وثيقتين: اجتماعيَّة وأدبيَّة. ويمتزج في هذه الذكريات السردُ الروائيَ بروح الفكاهة.

سهيل إدريس روائيّ وناقد لبنانيّ. ولد عام ١٩٢٥. أسَّس دار الآداب، ومجلة «الآداب» التي ظلّ رئيسَ تحريرها لمدَة أربعين عامًا.

له ثلاث روايات: الحيّ اللاتينيّ، والخندق الغميق، وأصابعنا التي تحترق؛ وله مجموعتان قصصيتان، ومقالات نقدية مجموعة في كتابين بعنوان: مواقف وقضايا أدبيّة، وفي معترك القوميّة والحرية. تَرْجم عن الفرنسيّة أكثرَ من عشرين كتابًا. وهو مؤلّف المعجم الفرنسيّ ـ العربيّ الشهير: المنهل. ويُنجز حاليّاً المنهل العربيّ ـ الفرنسيّ، والمنهل العربيّ ـ العربيّ مع د. سماح إدريس.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت